مكتبة مصر

عودة الوعي

توفيق الحكيم

Bibliotheca Alexandrina
0205180
89

توفيق الحكيم

عودة الوعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١	ـ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	١٩٣٦
٢	ـ عودة الروح (رواية)	١٩٣٣
٣	ـ أهل الكهف (مسرحية)	١٩٣٣
٤	ـ شهرزاد (مسرحية)	١٩٣٤
٥	ـ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	١٩٣٧
٦	ـ عصفور من الشرق (رواية)	١٩٣٨
٧	ـ تحت شمس الفكر (مقالات)	١٩٣٨
٨	ـ أشعب (رواية)	١٩٣٨
٩	ـ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	١٩٣٨
١٠	ـ حمارى قال لى (مقالات)	١٩٣٨
١١	ـ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	١٩٣٩
١٢	ـ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	١٩٣٩
١٣	ـ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	١٩٤٠
١٤	ـ حمار الحكيم (رواية)	١٩٤٠
١٥	ـ سلطان الظلام (قصص سياسية)	١٩٤١
١٦	ـ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	١٩٤١
١٧	ـ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	١٩٤٢
١٨	ـ بجماليون (مسرحية)	١٩٤٢
١٩	ـ سليمان الحكيم (مسرحية)	١٩٤٣
٢٠	ـ زهرة العمر (سيرة ذاتية ـ رسائل)	١٩٤٣
٢١	ـ الرباط المقدس (رواية)	١٩٤٤

٢٢ ـــ شجرة الحكم (صور سياسية) ١٩٤٥
٢٣ ـــ الملك أوديب (مسرحية) ١٩٤٩
٢٤ ـــ مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
٢٥ ـــ فن الأدب (مقالات) ١٩٥٢
٢٦ ـــ عدالة وفن (قصص) ١٩٥٣
٢٧ ـــ أرنى الله (قصص فلسفية) ١٩٥٣
٢٨ ـــ عصا الحكيم (خطرات حوارية) ١٩٥٤
٢٩ ـــ تأملات فى السياسة (فكر) ١٩٥٤
٣٠ ـــ الأيدى الناعمة (مسرحية) ١٩٥٩
٣١ ـــ التعادلية (فكر) ١٩٥٥
٣٢ ـــ إيزيس (مسرحية) ١٩٥٥
٣٣ ـــ الصفقة (مسرحية) ١٩٥٦
٣٤ ـــ المسرح المنوع (٢١ مسرحية) ١٩٥٦
٣٥ ـــ لعبة الموت (مسرحية) ١٩٥٧
٣٦ ـــ أشواك السلام (مسرحية) ١٩٥٧
٣٧ ـــ رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية) ١٩٥٧
٣٨ ـــ السلطان الحائر (مسرحية) ١٩٦٠
٣٩ ـــ يا طالع الشجرة (مسرحية) ١٩٦٢
٤٠ ـــ الطعام لكل فم (مسرحية) ١٩٦٣
٤١ ـــ رحلة الربيع والخريف (شعر) ١٩٦٤
٤٢ ـــ سجن العمر (سيرة ذاتية) ١٩٦٤
٤٣ ـــ شمس النهار (مسرحية) ١٩٦٥

٤٤ ـ مصير صرصار (مسرحية) ١٩٦٦
٤٥ ـ الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
٤٦ ـ ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
٤٧ ـ قالبنا المسرحى (دراسة) ١٩٦٧
٤٨ ـ بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
٤٩ ـ مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ١٩٧٢
٥٠ ـ رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
٥١ ـ حديث مع الكوكب (حوار فلسفى) ١٩٧٤
٥٢ ـ الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
٥٣ ـ عودة الوعى (ذكريات سياسية) ١٩٧٤
٥٤ ـ فى طريق عودة الوعى (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
٥٥ ـ الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
٥٦ ـ ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
٥٧ ـ بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
٥٨ ـ أدب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
٥٩ ـ مختار تفسير القرطبى (مختار التفسير) ١٩٧٧
٦٠ ـ تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
٦١ ـ ملامح داخلية (حوار مع المؤلف) ١٩٨٢
٦٢ ـ التعادلية مع الإسلام والتعادلية (فكر فلسفى) ١٩٨٣
٦٣ ـ الأحاديث الأربعة (فكر دينى) ١٩٨٣
٦٤ ـ مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
٦٥ ـ شجرة الحكم السياسى (١٩١٩ ـ ١٩٧٩) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينن‍جراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ـــ ترجمة أبا إيبان ـــ ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .
عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .
بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .
الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان ــ لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ــ ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان ــ لندن .

كلمة للطبعة الثانية

بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب « عودة الوعى » غضب الناصريون فى مصر وخارج مصر ، وهاجوا وماجوا كما لو كانت الناصرية ديناً مقدساً لا ينبغى المساس به ، وكما لو أن عبد الناصر فوق مستوى البشر ، ليس لمخلوق أن يحاسبه على خطأ . ولو كان شخص جمال عبد الناصر هو المقصود لكان من واجبنا التسامح ، ولكنت أول المطالبين بالترحم على ذكراه وعدم إزعاجه فى مثواه . ولكم كنت أود أن يكون هذا هو موقفى نحو شخصه واسمه . ولكن عبد الناصر ليس شخصاً واسماً. إنه فترة حكم طويل دمغ مصر كلها بطابع معين . ولم يزل هذا الطابع من بعده يدمغ لحم مصر كأنه الوشم الذى يطمس معالم ما تحته . وتمر الأيام وتطلع الأجيال ولا تعرف ما تحت هذا الوشم ولا ما كان قبله ولا ما سيكون بعده . إذن على مصر أن تتوقف عن النمو السياسى والفكرى والاجتماعى ، لأنها لا تعرف ولا تريد أن تكشف حقائق هذه الفترة من الحكم الفردى المطلق . كان لا بد إذن من فتح ملف ثورة ١٩٥٢ بأكملها ورؤية

الحقائق إذا أردنا لمصر أن تنهض على قدميها وتسير بنفسها فى طريق التقدم . وليس من الضرورى بعد فتح الملف أن نحاكم ونعاقب . هذا ليس بالهدف المنتج . إن أهم هدف من هذا الذى أسميه « فتح الملف » هو فتح العيون على الأخطاء والكوارث حتى نتجنبها ونحن نبنى مصر من جديد ، وحتى لا نسمح لكائن من كان بتكرارها . ثم فتح الأذهان على ما قيل إنه مكاسب وإنجازات لنفحص قيمتها الحقيقية ونتائجها الفعلية ، لأن هذه الفترة المملوءة بالأكاذيب اختلطت فيها الشعارات الفارغة الرنانة بما قد يكون قد نتج حقاً من منافع .

ولكن الناصريين ، أى الراكبين على حصان عبد الناصر ، لسبب أو لآخر ، يفزعون من مجرد ذكر الملف وفتحه . لماذا ؟ أترك الجواب لفطنة من يحب الحقيقة ويريد لبلاده أن تبنى على الصدق . وليس له غرض أو مرض . ولن أكف عن المطالبة بفتح الملفات وكشف الحقائق مهما يسخط الساخطون .

ولقد رأيت أن أطلع قارئ هذه الطبعة على نموذج من رد الفعل (فى ختام الكتاب) مشفوعاً بردى ، توضيحاً للمواقف ، راجياً من كل مواطن أن يضع مصلحة وطنه فوق كل اعتبار ...

كَلمَة

لم يكن فى عزمى ولا نيتى الإذن بنشر هذه الصحفات يوم كتبتها . كان دافعى إلى كتابتها فى ذلك اليوم هو انقضاء عشرين عاماً على ثورة ١٩٥٢ وتأملى هذه الفترة من تاريخ بلادى ، والجو من حولى مكفهر بالأحداث الأليمة ، والصدور منقبضة بكابوس الهزيمة ...

جعلت أسترجع ما وعته ذاكرتى من صور الثورة ومن صلتى بها ، وأحاسب نفسى من خلال محاسبتى لها . ولم أطلع أحداً على هذه الصفحات . أردت أن أدسها بين أوراقى الخاصة وأحتفظ بها احتفاظى بشىء يخصنى وحدى ، واعتبرتها مذكرات ليست بعد للنشر ، تحدد على الورق مشاعرى الشخصية تجاه تلك الحقبة من عمرى . وهذا ما فعلته ... لأن مواقف أهل الرأى التى يجب أن تعلن هى التى تكون أثناء الأحداث وفى صميمها — إذا استطاعوا — وليس بعدها . أما إذا كان الأمر

تدويناً لذكريات ومراجعة لأمس ومحاسبة لنفس فإن هذا لا يمكن بالضرورة أن يكون إلا بعد زوال الأحداث . ولذلك بقيت هذه الصفحات خطية مطوية ، إلى أن شاءت ظروف فى مناسبة من المناسبات أن أطلع عليها صديقًا قديمًا أثق به كل الثقة . فاستأذننى فى استخراج نسخة من هذه المخطوطة يحتفظ بها لنفسه . وكان أن استنسخها على آلة كاتبة . وإذا بعدد من النسخ قد تسرب . ثم تكاثر وانتقل فى الخفاء من يد إلى يد . إلى أن خرج الأمر كله من يدى . ولم أحفل كثيرًا بما حدث ويحدث ، لأن الأصل المكتوب بخط يدى هو فى حوزتى دائمًا ، وليس على ما نشر توقيعى ولا اسمى . ولكن الأمر استفحل حتى وجدت ذات يوم مجلة فرنسية محترمة قد نشرت ترجمة غير كاملة عن نسخة من تلك النسخ المتسربة . وأرادت مجلة أخرى فى أوربا أن أصرح لها بالنشر فرفضت ورضخت لإرادتى . وأخيرًا علمت أن إحدى الجرائد فى لبنان قد نشرت عن النص الفرنسى غير الكامل ترجمة عربية بعيدة عن الأصل أسلوبًا ومضمونًا . ثم جاءنى أكثر من ناشر يطلب نشر الأصل الكامل باسمى

وأسلوبى فى جريدة أخرى ثم إخراجها فى كتاب . وهنا عزمت على أن أقاضى قانونيًا كل أولئك الذين نشروا هذه الصفحات المبتسرة المترجمة بدون علمى وإذنى ونسبوها إلىّ . ولكن بعد التروى واستشارة الأصدقاء من أهل الفكر والرأى اتضح أن المقاضاة قد تحمل معنى الإنكار لهذه الصفحات بما فيها من رأى . وهذا الإنكار ليس فى نظرهم من شيمتى ، لأنهم يعرفون عنى من قديم أنى لم أنكر قط شيئًا كتبته ، أو حتى لم أكتبه ونسب إلىّ واعتقدته ووجدته يمثل رأيى . واتفقوا على أن أصرح بالنشر ما دام النشر قد وقع بالفعل ، وأن من حق الناس أن يطالعوا ما أكتبه فى السر أو فى العلن ، لأن القلم والفكر فى رأيهم ملك الناس جميعًا وليس ملكًا خاصًا محبوسًا على صاحبه . وهذا صحيح . وهذه عقيدتى أيضًا . فحامل القلم والفكر مسئول عن تبليغ الناس بما يراه . حتى وإن كان غير مسئول عن صحة الرأى . فهو ليس بمعصوم من خطأ التقدير أو خداع النظر أو سوء الفهم أو سلامة الحكم أو حجب مصادر العلم . ولكنه مسئول دائمًا عن الصدق والإخلاص فى الرأى كما

استطاع أن يراه ... على أنى وقد أذنت أخيرًا بنشر هذه الصفحات على الملأ أحب أن يفهم الناس من ذلك أنها آرائى وشهادتى أمام ضميرى . ولا أحب أن تؤخذ على أنها موقف سياسى أو حكم نهائى . على العكس ، إنى أطالب فيها بالبحث المنصف والتحقيق الدقيق والكشف عن الحقيقة ، بعد فتح ملف هذه الفترة بأكملها .

إن المهمة الكبرى لحامل القلم والفكر هى الكشف عن وجه الحقيقة ...

عودة الوعى

هذه السطور ليست تاريخًا إنما هى مشاهد ومشاعر استرجعت من الذاكرة ولا تستند إلى أى مرجع آخر .

للفترة ما بين هذين التاريخين من يوم الأربعاء ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى يوم الأحد ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٢ .

عودة الوعى

كان يوم أربعاء فيما أذكر . ذلك أن اليوم التالى ، وهو الخميس ، كان يوم سفرى الأسبوعى إلى الإسكندرية . لقد كنت يومئذ مديرا لدار الكتب المصرية . ولم تكن إجازتى السنوية قد حان موعدها فسبقتنى أسرتى إلى المصيف ، على أن أمضى معها عطلة نهاية الأسبوع . وصرت وحدى فى مسكنى . ولم أكن فى حاجة إلى من يخدمنى ، فطعامى أتناوله فى الخارج . وأسهر مع أصدقاء وزملاء من الكتاب والصحفيين ، ولا أعود إلى شقتى إلا آخر الليل لأنام . وكانت القاهرة فى هذه الأيام الأخيرة من شهر يوليو تكاد تكون مقفرة . فالملك فاروق قد انتقل إلى مصيفه بقصر المنتزه ، وانتقلت معه الحكومة وكبار موظفيها إلى مقرها المعتاد فى بولكلى . كل شىء يسير سيره العادى . وعدت من سهرتى وآويت إلى فراشى .

ذلك الصباح ...

وفى الصباح الباكر نهضت وأدرت جهاز الراديو كما أفعل كل صباح . ولكنى سمعت شيئا غريبا لم يسبق لى سماع مثله . إنه بيان من الجيش يعلن قيامه لإصلاح الفاسد من أمر البلاد ، وإنه تقدم بمطالب إلى القصر الملكى لإقصاء الحاشية الفاسدة . كلمات بهذا المعنى تلقيتها طبعا بابتهاج ، وإن كنت لم أقدر لها من الأبعاد أكثر مما تحتمل . فما من أحد فى البلاد ، فى ذلك الوقت ، لم يشعر بالسخط والاشمئزاز لسلوك الملك الشخصى وتصرفه العام . فقد كان لا يخجل من الظهور فى كل مكان بين حاشيته من القوادين المبتذلين.و لم يقف بهم عند حدود حياته الخاصة اللاهية العابثة ، بل تركهم يتدخلون ويؤثرون فى شئون الدولة . ولقد حاول بعض النصحاء أن ينبهوه إلى خطورة ذلك وسوء عاقبته ، فلم يلتفت إلى نصح . بل لقد رفع إلى أعتابه ، رجاء بتطهير قصره من مثل هذه الحاشية ، فى عريضة رسمية موقع عليها من بعض رجال السياسة ، فغضب منهم و لم يأبه لهم . واستمر كل شىء فى طريقه المعهود . لذلك لم أشعر عند سماعى بيان الجيش بأن شيئا خطيرا سوف يحدث . إنه مجرد احتجاج ككل احتجاج .

وارتديت ملابسى وخرجت فى صباح ذلك اليوم (الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، واتجهت إلى ميدان سليمان باشا لأتناول فطورى المعتاد ، وإذا بى أجد فى ذلك الميدان دبابتين من دبابات الجيش المصرى . إذن المسألة قد تكون أكبر مما توقعت . فنحن قد اعتدنا أن نرى فى مثل هذه المواقف دبابات جيش الاحتلال الإنجليزى . أما دبابات جيشنا المصرى ، وخاصة بعد بيان يتحدى الملك ، فمعناه شىء لم يكن يخطر لنا على بال . ودخلت محل « جروبى » ، ووجدت هناك بعض المعارف يتحدثون فى ذلك الأمر ، وقد احتدم الحديث وعلت الأصوات واشترك فى النقاش من نعرف ومن لا نعرف ، فأدركت أن أحداثا خطيرة فى الطريق إلينا . وفى اليوم التالى ، الخميس ، غادرت مكتبى بدار الكتب لألحق بأوتوبيس الصحراء الذى يتحرك فى الرابعة بعد الظهر إلى الإسكندرية . وذهبت إلى بيتى توا و لم أخرج منه إلا فى صباح الجمعة فرأيت سيارات الجيش تذهب وتجىء طول طريق الكورنيش والناس يصفقون لها بحماس . وكنت أنا الآخر فى شدة الحماس . ما من أحد فى مصر لم يتحمس لهذا الجيش ، الذى استطاع وحده أن يقف ضد ذلك الملك ذلك الشخص المكروه من الجميع ، بأخلاقه القذرة وجسمه المترهل كأنه الخنزير .

وكأن القدر أراد له النهاية فأعماه عن سلوك الطريق الذى ينقذه .

لقد كانت البوادر تنذر بالعاصفة ، فواجهها هو بتأليف وزارة جديدة واهية هزيلة ، وجعل وزير الدفاع فيها زوج أخته « فوزية » الشاب الرقيق إسماعيل شيرين . وحتى هذا الشاب فهم للتو أن الظروف أخطر والمسئولية أكبر من أن يحملها مثله ومثل هذه الوزارة . فما أن تقدم لحلف اليمين أمام الملك حتى جثا على ركبتيه ، واستحلفه بحق النسب والقرابة ، أن يستمع منه لقولة الصدق وهى أن يأتى بالرجل الوحيد الذى يستطيع أن يواجه الموقف وينقذ العرش : إنه زعيم الأغلبية « مصطفى النحاس باشا » ، فهو لم يزل يحتفظ فى البلاد بشعبية واسعة ، وظهوره فى تلك اللحظات سيجذب إليه الجماهير فتصغى إليه وإلى الحل الذى يراه ، وهو على كل حال رجل معروف بأنه لا يتصرف إلا فى حدود الدستور .

وتردد الملك

ولكن الملك تردد . وربما كبر عليه أن يأتى بعدوه التقليدى ليخرجه من مأزقه . وأمام إلحاح نسيبه الشاب أحال الموضوع إلى رئيس ديوانه ليدلى برأيه . وكان هو « الدكتور حافظ عفيفى » أحد أعداء النحاس وحزبه ، فكان رأيه بالطبع معروفا . وضاعت الفرصة

على الملك . وسارت الأمور بسرعة مذهلة . وفى طريق عودتى إلى القاهرة بالأتوبيس الصحراوى ، بعد ظهر السبت ٢٦ يولية ١٩٥٢ ، وقفنا فى استراحة « الرست هاوس » وطلبت فنجانا من القهوة ، وإذا صوت مذيع الراديو بالمكان ، يعلن خبر مغادرة الملك للبلاد بعد نزوله عن العرش . وكان شعور البلاد بالفرحة شعورا حقيقيا لا جدال فيه ...

السادة الجدد

وتطلعت البلاد إلى السادة الجدد . من هم ؟ لم يكن أحد منا يعرف عنهم شيئا . اللهم إلا رئيسهم باسم الحركة فى البيانات التى تصدر فى الصحف وتذاع فى محطات الإذاعة . إنه لواء فى الجيش هو « محمد نجيب » ، كان قد تردد اسمه فى الشهور الأخيرة ، وقيل إن رجال الجيش ، وخاصة الضباط الشباب يرشحونه لرياسة ناديهم ، والملك فاروق يعارض . ثم أبعده ورشح غيره من رجاله المقربين . ولكنه ظل محبوبا من الضباط الشنبان ، إلى أن ظهر على رأسهم فى هذه الحركة التى أدت إلى طرد الملك .

والآن وقد استتب الأمر وأصبح كل شىء فى يد القائمين

بالحركة ، ماذا هم فاعلون ؟... كان من رأى « اللواء محمد نجيب » ، كما سمعت ، أن الجيش لا يحكم ولا ينبغى له ، وأن عليه أن يترك حكم البلاد لأهلها بالطريقة الدستورية، وأن يعود الجيش إلى ثكناته ويراقب سير الأمور عن كثب، وقيل إنه اتصل بزعيم حزب الأغلبية «مصطفى النحاس» فى هذا الشأن، وإن محادثات تليفونية بينهما قد سمعت. ووقعت جفوة بين اللواء الرئيس وزملائه الضباط الشبان.

الضباط وبجماليون

وقال لى يومئذ صديق من الصحفيين اللامعين المتصلين بهؤلاء الضباط اتصالا وثيقا : إنهم يقولون إن الأمر يشبه مسرحيتك عن « بجماليون » ... كانوا يقصدون بذلك أنهم هم الذين صنعوا من محمد نجيب التمثال الذى يقدم للناس على أنه رأس الحركة ، والواقع أنهم هم الذين فكروا فى القيام بحركتهم وخططوا لها وكتبوا لها المنشورات باسم « الضباط الأحرار » وحددوا موعد التنفيذ . ولكنهم استصغروا أنفسهم على مواجهة الناس وهم صغار السن والرتبة العسكرية . وخشوا أن لا يأخذ الناس مأخذ الجد حركة يقوم بها جماعة من شباب الجيش المجهولين المغمورين . كان لا بد لهم من

وجه كهل ، برتبة لواء على الأقل ، يضعونه فى المقدمة ويتقدمون خلفه . فاختاروا اللواء محمد نجيب ، وأقاموه تمثالا فوق قاعدة الحركة . ولكنه الآن قد استقر فى أعين الناس ، ونسى أنه مجرد تمثال ، وأخذ يتصرف برأيه فى مستقبل البلد السياسى ، فتذكروا تمثال « بجماليون » . ولكن هل كان أحدهم قد قرأ حقا مسرحيتى ، أو أن الذى يعرفونه أو سمعوا عنه هو مجرد الاسم والعنوان ؟ مهما يكن من أمر ، فإن بجماليون فى مسرحيتى قد حطم بعد ذلك تمثاله ، وهذا بالضبط ما فعلوه هم بتمثالهم ...

ولكن السؤال هو : هل كان فى تدبيرهم من أول الأمر التخلص من محمد نجيب بعد الانتهاء من مهمته ؟..... أو أن الحوادث اضطرتهم إلى ذلك ؟.. لقد قيل إن بعض لواءات الجيش والسياسيين قد نصحوا محمد نجيب بأن يبادر بالتخلص من هؤلاء الشبان المتهوسين ، ولكنهم هم كانوا أسبق منه ، فتغدوا به قبل أن يتعشى بهم ... وقيل أيضا ولست أدرى أحقيقة هى أم إشاعة ، إن تأييد السودان لمحمد نجيب وزعامته كان عظيما ، فأمه سودانية ، وإن السودانيين كانوا على استعداد للوحدة مع مصر بزعامة محمد نجيب ، وإذا تم ذلك فمعناه الاستقرار النهائى لحكم نجيب ، والقضاء على فكرة إقصائه والتخلص منه . ولذلك قبل أيضا — والعهدة على الراوى أو

الرواة — إن الضباط الأحرار أسرعوا وأوفدوا من ذهب إلى السودان للعمل على عرقلة هذه الوحدة .

الخلافات الحزبية

كل هذه إشاعات أو حقائق لا بد أن يتناولها التاريخ بالفحص الدقيق فى يوم من الأيام ...

هناك سؤال آخر : هل كان فى تخطيط هؤلاء الضباط الأحرار أن يحكموا البلاد بأنفسهم أو أن الظروف فى البلد ذلك الوقت هى التى دفعتهم إلى ذلك دفعا ؟... إنى بالطبع لا أستطيع أن أعرف دخيلة نواياهم ، ولكنى أعرف بالمشاهدة المباشرة ، كما يعرف الكثيرون فى ذلك الوقت ، ما كانت عليه حالة البلاد من خلافات حزبية وأخلاق انتهازية . فمن الخلافات الحزبية ما لمست بنفسى مثلا من أمثلته وقد قامت الثورة . وكانت حوادثها المتلاحقة تدعونى إلى تتبعها ، فكنت أتردد على جريدة « أخبار اليوم » كل ليلة لأستطلع ما يجرى . وفى ذات ليلة وجدت هناك صديقى الصحفى القديم المرحوم « توفيق دياب » صاحب جريدة « الجهاد » الوفدية . وما كدنا نجلس حتى دخل علينا أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين المعارض للوفد

وهم المرحوم « أحمد عبد الغفار باشا » . وإذا الاثنان يتلاقيان بالقبلات والأحضان ويتبادلان أرق العبارات بالود والترحاب . ثم أخذا يتحدثان فى الأوضاع الجديدة ومصير الدستور وضرورة وقوف الأحزاب كلها صفا واحدا ، ووضع حد للخلافات ، ومد كل سياسى يده إلى الآخر لتتحد الكلمة ، حفاظا على دستور البلاد ، فقال أحمد عبد الغفار : « ومن يضمن لنا حسن نيتكم يا حزب الوفد ؟ » فرد عليه توفيق دياب : « إذا كان هناك غدر فأنتم أصحاب الغدر دائما يا حزب الأقلية » . وكلمة من ذاك وكلمة من هذا فلم أشعر إلا بالأصواتِ وقد ارتفعت بالسباب من الطرفين . وصوت أحمد عبد الغفار الجهورى المجلجل يصيح : « من يضع يده فى أيديكم يا وفديين يا حزب الرعاع يا كلاب » ، فصرخ توفيق دياب وقال وهو يجأر : « اخرس يا وغد أنت وحزبك الحقير يا صنائع الإنجليز .... » ولم يقف الأمر عند حد التراشق بالسب والشتم بل تعداه إلى الضرب واللكم .

وتضارب السياسيان

فقد رفع عبد الغفار عصاه لينهال بها على خصمه ، فاندفع خصمه دياب بكل جسمه الممتلئ ليكيل له لكمة ... و لم أجد بدا من التدخل ، لأحول بينهما . فأمسكت بسترة توفيق دياب لأجذبه إلى الخلف ، فانزلقت قدمه ووقع على الأرض ووقعت معه . ثم نهض وهو يحاول التخلص من قبضتى التى ماتت على سترته صائحا : « سيبنى سيبنى يا أخى ... لازم أعلمه الأدب وأهشم له دماغه الوسخ » ، والآخر لا يزال واقفا بعصاه المرفوعة فى الهواء وهو يرغى ويزبد بسبه وسب الوفديين جميعا ... و لم أجد دنواً من أن أسحب صاحبى إلى الخارج . ونجحت فى إخراجه وأوصيته أن يذهب إلى بيته فورا وينام فى فراشه . فأنا أعرف أنه خارج حديثا من أزمة قلبية . وخشيت عواقب هذه المحادثة على صحته . وعدت إلى أحمد عبد الغفار محاولا أن أعيد الصفاء إلى النفوس ولكن هيهات .... لقد أيقنت تلك الليلة أن لا شيء ، يمكن أن يقضى على داء الحزبية والتعصب الحزبى فى هذا البلد ...

ثورة ضد الدستور

لكن ماذا حدث للدستور القائم فى مصر وقتئذ ؟ قيل لى إن حركة الضباط بعد أن نجحت فى طرد الملك فاروق ، وحصلت منه على وثيقة النزول عن العرش ، تلك الوثيقة التى ذهب وقدمها إليه فى قصره بالمنتزه وكيل مجلس الدولة « سليمان حافظ » ، كان على الضباط الأحرار أن يسيروا فى إجراءات الوصاية على العرش وهى إجراءات منصوص عليها فى الدستور . وقيل أيضا إن زعيم حزب الأغلبية « النحاس باشا » اتفق معهم على كل هذه الإجراءات الدستورية بما فيها دعوة مجلس النواب المنحل لتعرض عليه أسماء الأوصياء ، طبقا لأحكام الدستور ثم تتخذ الإجراءات لإجراء انتخابات جديدة ... ولكن « سليمان حافظ » وهو أيضا من أعداء الوفد ألقى فى نفوسهم الخوف فى ذلك . وقال لهم إن الانتخابات الحرة ستسفر حتما عن برلمان وفدى . ومن أدراكم أن هذا البرلمان سيؤيدكم . ثم أشار عليهم بإهمال هذا الدستور ، وأفتى لهم بأن من حقهم إصدار القوانين دون برلمان ، لأنهم قاموا بثورة ، والثورة معناها إلغاء ما قبلها من أوضاع ..... وهكذا أطلق على حركة ٢٣ يولية اسم « الثورة » بعد

أن كان اسمها « الحركة » ولحبنا لها سميت « الحركة المباركة » . وقام بعض أساتذة الجامعة يؤكدون وصف « الثورة » ويؤيدون حقها المطلق فى إصدار القوانين ...

وأصبحت الحركة ثورة

ولكن بعض فقهاء القانون الدستورى ، قاموا من جهة أخرى ينفون عن الحركة وصف الثورة ، ويدللون على أن الوصف المنطبق على هذه الحركة هو « الانقلاب العسكرى » ذلك أن الثورة يقوم بها الشعب ويقودها مدنيون وكما حدث فى الثورة الروسية التى قام بها الشعب بقيادة « لينين » وكما حدث فى الثورة المصرية سنة ١٩١٩ التى قام بها الشعب بقيادة مدنيين . أما الحركة التى تقوم بها جماعة مسلحة من رجال الجيش فهى « انقلاب لنظام الحكم » ولكن الضباط الأحرار لم يأخذوا طبعا بالرأى الثانى ، وأبعدوا أصحابه ، ورحبوا بالرأى الأول وقربوا القائلين به . وأصبحت الحركة ثورة وأصبح لها مجلس ثورة يصدر القوانين فى حجرات مغلقة دون معارضة وبغير مناقشة علنية .

أين كنا ؟...

ولكن .... أين كنا نحن ؟ أين كان المفكرون فى هذا البلد ؟ وأين كنت أنا المحب لحرية الرأى ؟ الواقع أننا ــ ولأقصر الكلام على نفسى ومشاعرى ــ لم أشعر قط بضيق . على العكس كنت مستبشرا بقدوم هؤلاء الشبان ، مبهورا بما قاموا به من طرد ملك ، ما كان أحد يخطر بباله أن يطرد بهذه السهولة . أما الحياة الدستورية التى ضاعت ، فلم نلتفت إلى خطورة ضياعها فى ذلك الوقت . لأننا كنا خارجين من مرحلة فقد فيها الدستور قدسيته ، وأفسدت فيه الديمقراطية إفسادا جعل منها مطية للانتهازيين ووسيلة للمستوزرين ، مما كنت ذكرته فى كتابى « شجرة الحكم » . فقد سبق أن ذكرت فيه رأيى الذى أذعته عام ١٩٣٨ وهو أن النظام البرلمانى كما يطبق فى مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين . وأن البرلمان كف عن مراقبة أعمال الحكومة بالمعنى الحقيقى ... وأن على البيت والمدرسة الإكثار من تذكير الشباب بالمثل العليا ... وأن يقنعاه بأنه هو المنوط به يوماً إصلاح كل هذا الفساد وإحداث الثورة المباركة .. التى تقيم الوطن

على أقدام الصحة والقوة والنظام . بهذه الألفاظ بالنص كتبت قبل ثورة ١٩٥٢ بأعوام طويلة . فلا عجب إذن أن أرحب بهذه الثورة ، ولا أفجع لضياع الدستور . إذن هذه مسئوليتى .. وإذا كان الدستور قد ضاع بنصيحة ذوى الأحقاد والأغراض فهذه لم تكن المرة الأولى . فقد سبق للدستور أن انتهك بنصيحة كهذه يوم اعتلى فاروق العرش ، وباشر وهو شاب صغير برىء سلطاته الدستورية . لم يخطر فى باله أن دستور البلاد يمكن أن ينتهك . ولكن بعض مستشاريه والناصحين له المقربين إليه ، من رجال القصر من أمثال « على ماهر » و « أحمد حسنين » أرادوا أن يحولوه من ملك دستورى إلى حاكم مطلق ، ليحكموا هم من خلفه ، فأفهموه أنه هو فوق الدستور ، وأن عليه أن ينتهز أول فرصة لإفهام الناس أنه هو الحاكم القوى ، واختاروا له هذه الفرصة يوم جاءت الانتخابات بالنحاس زعيما للأغلبية ، وتقدم بكشف تشكيل الوزارة ، فأشاروا على الملك أن يرفض بعض الأسماء ويبدل ويعدل فى الكشف المقدم . وكانت هذه المخالفة الدستورية فاتحة عهد تحطمت فيه كل حياة ديموقراطية صحيحة .

مبادئ بلا أشخاص

لذلك خفّت علينا ــ وعلى الأخص عليَّ أنا بالذات ــ وطأة دستورنا الضائع . فالمبادئ ليست بذات قيمة فى نظرى بغير الأشخاص الذين يطبقونها بإخلاص ، ويؤمنون بها ويحرصون عليها . ولقد كانت عندنا مبادئ ودساتير فى أيدى أشخاص يتلاعبون بها لمنافعهم وأغراضهم ، وما كنا نحلم به وننتظره دائماً هو ظهور الأشخاص المخلصين . وهؤلاء الضباط الشبان بدوا لنا ــ ولى أنا على الأخص ــ أنهم جاءوا مخلصين لإصلاح البلد . فقد أعلنوا فى شجاعة ما كنا ننادى به ولا نجد الأذن الصاغية . بادروا بإلغاء الألقاب . ولطالما كتبنا ونشرنا نسخر منها . وفى كتابى « تحت شمس الفكر » مقال بعنوان « كادر المقامات » ، أسخر فيه من ألقاب « صاحب الرفعة » ، و « صاحب الدولة » و « صاحب المعالى » و « صاحب السعادة » و « صاحب العزة » ، وغير ذلك مما يثير الابتسام عندما نتذكر رجلا مثل « تشرشل » الذى يومئذ كان يهز العالم ولا يحمل إلا لقب « مستر » ، الذى يحمله سائق سيارته . هذا ما جاء فى ذلك

الكتاب ، كما جاء فيه أيضا ضرورة إلغاء « الطرابيش » ثم تحديد الملكية . وقد طالبنا به أيضا ، فقد تقدم نائب فى البرلمان السابق بهذا المطلب فلم يلتفت إليه بالطبع أحد . فلما علمت بخير العزم الجاد على تحديد الملكية الزراعية تلقيت الخبر بحماس .

السنهورى ...

وكان علمى بهذا الخبر فى صباح أحد أيام الصيف . وكنت جالسا فى مقهى صغير على الكورنيش بسيدى بشرى . فأقبل علينا الدكتور عبد الرازق السنهورى ، وكأنه جاء يبحث عنى . كانت صداقتى قديمة به ، منذ عام ١٩٣٥ . كنت مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، وكان هو أستاذا بكلية الحقوق . وكانت تجمع بيننا الأفكار المثالية والنزعات الإصلاحية ، وكنا نسكن منطقة الجيزة ، ونسير على أقدامنا ساعة العصر على كوبرى عباس نتحدث طويلا وفى يد كل منا قرطاس من الترمس ، ونحلم بشتى المشروعات . وفى ذات يوم جاءنى يقول إنه فكر فى مشروع نافع لتكوين الشباب وغرس روح البطولة والمثل العليا فى نفوسهم ، وإن خير وسيلة لذلك تأليف جماعة من طلبة الجامعة ، ممن يستطيع الاتصال بهم ، باعتباره أستاذا فى

الكلية ، تكون مهمتهم نشر هذه المبادئ . وطلب منى معاونته فى هذا المشروع بوضع البرامج اللازمة . وجعلنا نستعرض أبطال تاريخنا الذين يمثلون المبادئ العظيمة التى نريد غرسها فيهم مثل « عمر بن الخطاب » « وطارق بن زياد » و « رمسيس الثانى » ونحو ذلك ... ومضت أيام وبينما أنا جالس يوما فى مكتب وكيل الوزارة ، إذا بى أجد حركة غير عادية . الوزير يطلبه بالتليفون من مجلس الوزراء المنعقد ، وكانت الوزارة يومئذ ضد حزب الوفد والوفديين . ووكيل الوزارة يجرى هنا وهناك يحمل ملفات فسألته عن الخبر فقال : « مجلس الوزراء منعقد لفصل الدكتور السنهورى من الجامعة » فكدت أصعق . لماذا ؟ ماذا فعل؟ فقال : لأن الدكتور السنهورى وهو أستاذ بالجامعة ألف جمعية سياسية من طلبة الجامعة لنشر الدعوة للوفد بإيعاز من صديقه عضو الوفد « النقراشى باشا » فلم أصدق ما أسمع . وصحت به : « ما هذا الكلام ؟ هذا محض افتراء . هذه جمعية أخلاقية للحض على المثل العليا والتشبه بعمر بن الخطاب وطارق بن زياد ورمسيس الثانى » . فضحك ساخرا وقال : « اسكت ... اسكت ... عمر بن الخطاب إيه ؟ ورمسيس الثانى إيه ؟ أنت لا تعرف شيئا . تقارير الأمن العام بوزارة الداخلية والبوليس السياسى فى هذه الأوراق والملفات تثبت كل شىء » فأقسمت له بشرفى .... أن

السنهورى مظلوم ، لأنى أنا وهو مشتركان فى هذا المشروع الأخلاق الجليل . وإذا كان لا بد من فصل السنهورى لهذا السبب فافصلونى معه . فأكد لى أن الموضوع سياسى والجمعية لها أغراض سياسية حزبية وعضو حزب الوفد النقراشي ضالع فيها . وأن الموضوع لم يكشف لى على هذا الوجه ، وأنى لا اعرف منه ما أظهروه لى من واجهة بريئة وما هو إلا عمل حزبى بحت ، فعجبت عجبا شديدا . ولم تلبث الوزارة التى فصلت السنهورى أن سقطت وجاءت وزارة وفدية ، جاء فيها النقراشي باشا وزيرا فمد يده بالفعل إلى السنهورى ، وأعاده ومهد له طريق العمادة للكلية ثم وكالة وزارة المعارف . ولكن ذلك كله لم يؤثر فى صداقتى الشخصية للسنهورى .

بداية تحديد الملكية ...

فلما جاء ذلك الصباح يبحث عنى فى مقهى سيدى بشر ، وكان يومئذ رئيسا لمجلس الدولة وموضع الثقة والمشورة لدى ضباط الثورة ، سألته عن الخبر ؟ فقال « أتريدنا أن نجلس ونتكلم هكذا فى موضوع هام على قارعة الطريق ، وفى مثل هذا المقهى الصغير ؟ قم بنا إلى كازينو مغلق محترم .... » وقادنى من يدى ودخلنا بالفعل مكاناً

لائقاً وعندئذ قال لى : « اسمع ... رجال الثورة يريدون تحديد الملكية الزراعية ، وأمامنا الآن اقترحان : اقتراح بجعل الحد الأقصى للملكية خمسمائة فدان ، واقتراح آخر بجعلها مائتين » فلم أتركه يتم كلامه ، وصحت به « مائتين .. مائتين .. اجعلوها مائتين » .. كنا متحمسين للتطرف . لطول ما قاسينا فى مصر من التردد والرفض والمماطلة . وإنى أذكر دائما هذه اللحظة . وكثيرا ما كررتها لبعض معارفنا القدامى من أصحاب مئات الأطيان ، كلما لعنوا أمامى هذه الثورة التى استولت على أطيانهم كنت أؤكد لهم أن الثورة مظلومة ، وأننا كنا متحمسين لذلك ، فرحين لاستجابتها إلى مشاعر ومطالب كانت تخالجنا من قبل ...

حول إلغاء الطربوش

نعم كنا نرى الكثير من مطالبنا وتمنياتنا يتحقق بسرعة ويسر . فى حين أن أقل وأتفه ما كنا ندعو إليه فى الماضى كان يتعثر فى العراقيل ويتبخر فى الجدل . فأبسط الأشياء وهو خلع الطربوش رمز التبعية العثمانية ، الذى لا يوفر دفئا فى شتاء ولا يقى من الشمس فى الصيف ، لم ينجح أحد فى فرض خلعه أو تغييره . وقد أراد الصحفى القديم « محمود عزمى » أن يدعو إلى ذلك فى العشرينات ، ولبس القبعة فلم يتبعه أحد . واضطر إلى خلعها والعودة إلى الطربوش ، وتطلعت

أنظار المجددين إلى زعيم ثورة ١٩١٩ « سعد زغلول » ليقوم بالخطوة الأولى فى هذا السبيل ، ولو أنه فعل لتبعته الأمة أو أكثرها ، خصوصا وزعيم الثورة التركية « كمال أتاتورك » كان قد أصدر وقتئذ أمره بخلع الطربوش فى تركيا . فكيف تزول من البلاد التى جاءتنا بها ونظل نحن متمسكين ؟ ولكن « سعد زغلول » لم يشأ القيام بحركات أو إصلاحات ، مما يمكن أن تثير المناقشات والمجادلات التى تؤدى إلى انقسام الأمة فى وقت تحتاج فيه إلى الوحدة والتكتل لطرد الاحتلال البريطانى .... وجاءت الثلاثينات فتجددت الدعوة ، وكنت أنا طرفا فيها . وكثر الجدال على صفحات الجرائد بينى وبين رئيس تحرير جريدة المقطم المحافظة (خليل ثابت) . وانتهى الأمر بأن خلعت أنا وحدى الطربوش ولبست « البيريه » لقربه من الطاقية . وثبتت عليه حتى اليوم ورأيته يعلو الكثير من الرؤوس ...

حل الأحزاب ومحاكمة زعمائها

هذا التنفيذ السريع ، عقب قيام الثورة ، لقرارات كانت تستغرق منا لتنفيذها الأعوام والأجيال ، لقد بهرنا وجعلنا نسير خلف هذه الثورة بغير وعى .. وشعرت الثورة أنها قد أحرزت نجاحا جعلها

موضع الثقة ومناط الأمل ، فأرادت أن يكون لها سلطان راسخ .

ولكن الاحزاب لم تزل قائمة ، وقد تفيق يوما وتتحد وتطالب بعودة الحياة الدستورية فما هو مكان رجال الجيش ممن قاموا بالحركة ؟ وهنا بادرت الثورة بحل الأحزاب جميعها . ولكن هذا لا يكفى . فما زال فى البلد رجال سياسة ورجال عقول وأسماء كبيرة فى كل مجال ، لها الاعتبار أو بعضه فى النفوس والأذهان . أسماء قد يتضاءل إلى جانبها هذه الأسماء المغمورة لضباط شبان لا يوحى ذكرها بعد برصيد من تجربة أو علم أو ثقافة ... وهنا أيضا أقدمت الثورة على ضربة بارعة ، تكاد تشبه ضربة محمد على للمماليك فى القلعة . تلك هى إنشاء « محكمة الثورة » ، حيث جاءت بأغلب رجال السياسة من أصحاب الأقدار الكبيرة والأسماء اللامعة ، فجردتهم من هيبتهم تجريدا ، وجعلتهم يقفون أمامها وأمام الناس عرايا مستضعفين خائفين وطامعين ، كل منهم يطعن فى زميله لينجو بنفسه ، أو لينال الحظوة عند الحاكمين ، وضباط الثورة يشيرون إليهم ويقولون للناس : « هؤلاء هم الذين كانوا يحكمونكم وكنتم تحترمونهم ... » .

ولكن عددا من هؤلاء وقف أمام المحكمة وقال كلمة صدق وشجاعة ، دون أن يسف فى القول أو يطعن فى زميل . على سبيل المثال — فيما سمعنا — ما روى عن السياسى الأديب الدكتور « محمد

حسين هيكل » . سألته المحكمة : لماذا لم يقف فى وجه طغيان فاروق وهو زعيم حزب ؟، فرد على ضباط المحكمة بهدوء : « لأن فاروق كان يخيفنا بكم أنتم يا رجال جيشه ! ألم يكن فاروق هو القائد الأعلى للجيش وأنتم رجاله ؟ » ... وهذا صحيح.. ماذا يفعل حزب من المدنيين أمام الجيش ؟ كان فى الواقع سؤالا لا محل له . ولكن مثل هذه المحكمة ما كانت بالطبع تتوقع من مثل هؤلاء الساسة فى مثل هذا الموقف المهين ردودا محرجة ...

أما من كانوا خارج هذه المحكمة من رجالات مصر المرموقين فكان رجال الثورة يطلبونهم واحدا واحدا على انفراد ليستمعوا منهم ، فكان شأنهم شأن غيرهم . وهو تسابق الواحد منهم فى طلب الحظوة ، والإعلاء من قدر نفسه ورأيه ونصحه والحط من قدر غيره والتسفيه لرأى سواه ... فكانت لعبة الحكام الجدد المفضلة أن يضربوا هذا بذاك ، ويتلذذوا بمنظر هؤلاء الكبراء الفضلاء وهم يترامون على الأقدام خوفا وطمعا فى حلبة التزلف والملق ...

وحركة التطهير

ثم أردفوا ذلك بالخبطة الكبرى التى عمت آثارها البلد كله وقلبت الموازين وقوضت النظام القديم فى أدق تفصيلاته . وهى « حركة التطهير » ، وإغراء كل موظف أن يشكو رئيسه ، وكل صغير أن يتجهم على كبير . وكل زميل أن يشى بزميل ، فانقلبت المصالح والإدارات والوزارات والجامعات والمستشفيات ، وكل جانب من جوانب النشاط فى مصر إلى ميدان مطاعن بالحق والباطل . وفى أغلب الأحيان بالباطل . لأن الطاعن كان فى كثير من الأحوال مجرد مشاغب بالفطرة . أعطيت له فرصة الشغب ولم يسلم رئيس فى إدارة أو مدير فى مصلحة من شكوى مرؤوس له . ولا أستاذ فى جامعة من مطاعن زميل .

وشكوى ضدى أنا

وما من أحد سلم من الخدش فى هذا المعمعان . حتى أنا مدير دار الكتب لم أشعر إلا وشكوى قدمت ضدى من موظف محب للشغب . ماذا يمكن أن يقول وعملنا فى هذه الدار ليس فيه ما يسمح بالمآخذ ، ولكنه وجد شيئاً . ولا بد أن توجد فى هذه الهوجة شكوى من أى شىء فى أى مكان . ولم أكن أتصور أن يكون العمل النافع موضع شكوى . ماذا فعلت ؟ الحكاية أنه فى اليوم الأول لتسلمى وظيفتى فى دار الكتب وجدت فى حجرتى ما يشبه الكنبة المغطاة بكساء من الجوخ الأخضر . أردت الجلوس عليها فمنعنى السكرتير وأزاح الغطاء فإذا هو مصحف كبير . حجمه متر فى مترين . وغلافه من الفضة الخالصة قيل إنه هدية الدار من مهراجا هندى . فعجبت لوضعه هكذا فى حجرة المدير . ورأيت الواجب أن تعرض هذه التحفة الثمينة ليشاهدها الجمهور . ثم قمت بجولة تفتيش فى الدار فوجدت صناديق خشبية كبيرة ملقاة بإهمال تكاد تسكنها الصراصير . فأمرت بفتحها فإذا بها نماذج من صور « ميناتور » جميلة للفن الفارسى فى القرن السابع عشر ، تصور حكايات ألف ليلة وليلة

وكليلة ودمنة ونحو ذلك . فعجبت أيضاً وقلت : الجماهير أولى بها من الصراصير . ثم زارنى بعد ذلك العلامة النمسوى « جروهمان » وهو المتخصص فى العالم كله بكتاباته وبحوثـه فى أوراق البردى الإسلامى واستطعت أن أحصل منه على نماذج طريفة من مخطوطات البردى تكشف عن طريقة المعاملات الخاصة والعامة والتجارية فى مصر الإسلامية منذ أيام عمرو بن العاص .

وفكرت وقتئذ فى أن أعرض كل هذه الأشياء الثمينة فى شبه متحف أو معرض يشاهده الجمهور من المترددين على دار الكتب . وتصادف أن زارت القاهرة وقتئذ سيدة فرنسية هى بنت أخت عالم الآثار المصرية ومدير المتحف المصرى مسيو « دريوتون » . وكان صديقاً لى فرجوته أن يأذن بدعوة بنت أخته . وكانت تعمل فى متحف اللوفر بباريس للمعاونة فى تنظيم ذلك المعرض . فوضعت المصحف الفضى الضخم وسط المكان مفتوح الصفحات . وحوله سياج من القطيفة الحمراء مثبت على أعمدة رفيعة مـن النحـاس الأصفر ، ثم أشارت بصنع خزائن خشبية بواجهات زجاجية لعرض صور الفن الفارسى ، ونماذج مخطوطات البردى الإسلامية . ونجح المعرض وكان يأتى لمشاهدته كل يوم أفواج من الزوار وخاصة من النسائحين الأجانب . وما هى إذن الجريمة فى ذلك ؟ قالت الشكوى

إنى صرفت من مال الدولة مكافأة لسيدة أجنبية لأنها من قريبات أحد أصدقائى الأجانب . والحقيقة أن هذه السيدة الزائرة لم يصرف لها أى مبلغ . وقد قامت بهذه الخدمة تطوعاً منها عن طيب خاطر . وحفظت الشكوى بالطبع . ولكنها مثل من الأمثلة التى دلتنى على أن فتح هذا الباب ضرره أكثر من نفعه . وقد أدى بالفعل إلى اتهامات ظالمة كثيرة وإلى تشويهات لسمعة بعض أفاضل الناس . وإلى استبعاد نفر من خيرة الأساتذة والعلماء . ولكن الأخطر من كل ذلك هو إشاعة الفوضى فى النظام الإدارى نفسه . وخوف الرئيس من مرؤوسيه فزالت هيبته وسلطته فترك الحبل على الغارب ، وإذا كانت الثورة قد أرادت بذلك أن لا يكون لأى كبير فى البلد سلطة غير سلطتها . وأن تضرب الكبير بالصغير . فإن هذه الخطة قد أضرت بالثورة نفسها . فعندما استتب لها الأمر ، وشرعت فى حكم البلاد حكماً مطلقاً ، وجدت أمامها رؤساء ومديرين فى كل المصالح والأعمال والقطاعات فقدوا شجاعة المسئولية .

ومضت عمليات التطهير دون مبالاة وبغير حساب حتى شملت بعض كبار الموظفين ، الذين اختيروا بعدها بقليل ، ووزراء فى ذات الحكومة التى سبق أن أحالتهم للتطهير ، وعلى سبيل المثال المهندس عبد الملك سعد وزير المواصلات السابق ، والدكتور عبد الرازق

صدق فى وزير الزراعة الأسبق .

حماستى للحركة المباركة

لكن كل ذلك لم يكن قد بلغ فى نظرنا مبلغ الخطورة التى تستوجب النقد . والثورات تتحمل كثيراً من الأخطاء . ونتحملها نحن عنها . بل قلما نحفل بها أو نعتبرها أخطاء . ولكن عندما تنتهى الثورات إلى كوارث جسيمة حاسمة تهز مصير الأمة ، فإن هذه الأخطاء تصبح مكشوفة للنظر مطلوبة للتحقيق . شأن الشجرة الوارفة التى يسكن فى جذعها السوس . لا أحد يلتفت إلى سوسها ما دامت قائمة مثمرة أما إذا تهاوت أو اصفرت أوراقها ، فإن الناس يبحثون فى علتها والأنظار تهتم بما عاش فيها من سوس .

لم نكن نلتفت فى ذلك الوقت إلى عواقب ، لأنه لم تكن قد ظهرت بعد عواقب . كنا فى صميم ثورة تصدر كل يوم قرارات سريعة نافعة للشعب ، فيما تنم عليه من نية طيبة فى الإصلاح . وأذكر تماماً الآن كل مشاعرى نحوها . لم أشعر قط لحظة بغير التحمس المطلق لإجراءاتها . حتى فيما لحقنى منها رذاذ ، بانطلاق قذائف شكاوى التطهير فى كل مكان . فقد كان فى ظنى وقد ظهر ذلك فى كثير من

كتاباتى قبل الثورة ، أن مصر موبوءة تحت الحكم الفاروقى ، بداء . الحزبية والنفعية والظلم الاجتماعى ، وكنا نتمنى لذلك تغييراً . بل لقد جاء فى كتابى (شجرة الحكم) كما ذكرت بعض عبارات عجيبة كأنها التنبؤ عن ضرورة قيام « حركة مباركة وثورة مباركة » هكذا بالنص ... وجاءت بعد ذلك فعلاً ، وسميت بهذا الاسم فعلاً فى مبدأ ظهورها .

.... كل ذلك يثبت ولا شك ارتباطى الروحى بجوهر هـذه الثورة ، واعتقادى أنها تحقيق لأملى ورأيى . وإذا كان الأمر كما يقول الشاعر :

« وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدى المساويا »

فأنا لم أكن قط من الساخطين على ثورة تنبأت بها وانتظرتها ، وأردت المحافظة عليها والتغاضى عن عيوبها آملاً أن تصلح بنفسها هذه العيوب مع مرور الزمن ...

عندما أراد الوزير فصلى

ومضت الثورة فى طريقها يحالفها النجاح ، ويحف بها تصفيق التأييد من الشعب . وكانت تضم فى وزارتها الأولى بعض المدنيين . وكانت وزارة المعارف « التربية والتعليم » التى تتبعها دار الكتب قد عينت لها الثورة وزيراً من كبار رجال التعليم فى العهد السابق وكان من أصدقائى . ولكنه مع ذلك تصرف معى تصرفاً غريباً . فقد حدث يومئذ أن ترجمت لى مسرحية إلى اللغة الألمانية ومثلت فى سالزبورج فى مسرح الموزارتيوم ، المنسوب إلى الموسيقى موزارت . ودعيت إلى الحضور وسافرت . وكان احتفال أدبى فنى أقام لنا فيه رئيس الإقليم مأدبة كبيرة . وحيونا هناك تحية كريمة وصفها سفير مصر فى تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية مرفقاً به مقالات الصحف الألمانيـة . وعدت إلى مصر لأجد صديقنا وزير المعارف قد تقدم إلى مجلس الوزراء بطلب فصلى من وظيفتى طبقاً لقرار التطهير باعتبـار أنى موظف غير منتج . كل ذلك من خلف ظهرى وأنا لا أدرى شيئاً . ويظهر أن بعض الطامعين فى وظيفتى قد أغرى الوزير بهذا الإجراء . وعلمت بعد ذلك ما تم . فقد انبرى له أحد قادة الثورة وأقدرهم

وأقواهم شخصية . ذلك الذى بدأ اسمه يلمع من بينهم (جمال عبد الناصر) ، صاح فى ذلك الوزير المدنى قائلاً كما سمعت : (أتريد أن نطرد كاتباً عائداً إلينا بتحية من بلد أوربى ؟. أتريد أن يقولوا عنا إننا جهلاء) وانتهى الأمر بإخراج هذا الوزير من الوزارة ...

إنه ولا شك من حسن الطالع أن تضع الظروف هذه الثورة فى هذا الموقف الذى يبدو منه أن ضابطاً شاباً من رجال الجيش ، كان أحسن تصرفاً وأكثر تقديراً للمثقفين وفهماً للثقافة ، من رجل ناضج العمر من كبار رجال التعليم فى العهد السابق !...

ولم أقابل عبد الناصر

وصار عبد الناصر يذكرها دائماً فى أحاديثه مع الصحفيين والمراسلين الأجانب : طردت وزيراً من أجل مفكر . ومع ذلك لم يخطر لى أن أشكره . لا بالمقابلة ولا بالمراسلة ولست أدرى لماذا ؟.. ربما لأنه كانت قد تأصلت فى نفسى عادة البعد عن رجال السياسة والحكم . على الرغم من أن الأسماء الكبيرة فى البلد فى كل مجال ، كانت قد سعت وطلبت مقابلة رجال الجيش الحاكمين . بل أذكر أن صحفياً لامعاً من أصدقاء عبد الناصر زارنى يوماً فى مكتبى بدار

الكتب وأخبرنى أن رئيس الحكومة (جمال عبد الناصر) يدعونى إلى تناول الشاى فى بيته . دعوة خاصة لن يحضرها أحد غيرنا . فـقلت له معتذراً « كيف أذهب إلى رئيس الحكومة وما أنا إلا موظف فى درجة مدير عام . إن اتصالاتى هى مع وكيل الوزارة . وعلى أكثر تقدير مع وزيرى المختص » . فضحك وقال : إنه لا يدعوك بصفتك موظفاً بل بصفتك مؤلف « عودة الروح » التى قرأها ويقول إنها أثرت فى تكوينه الوطنى . فقلت له «ولو .. أرجوك أبعدنى عن رجال الحكم » . فكان بعد ذلك كلما رآنى قال أمام الحاضرين : « هذا هو الرجل الذى رفض مقابلة عبد الناصر » فأبادر بتخفيف الوضع : « ليس شخص عبد الناصر بل الحاكم . أنا لم أقابل قط فى حياتى رئيس حكومة وهو فى الحكم فيقول ضاحكاً : « يعنى تريد منه أن يستقيل ليراك ؟ » فأرد مبتسماً بالضبط هذا هو الحل .

البعد عن الحكم

وكان عبد الناصر كما سمعت . يدهش لابتعادى عنه : ألسنا نفعل ما فكر فيه وشعر به وكتب عنه ؟. إن الثورة ثورته . والواقع أن هذا هو المعقول والمنطقى . ولكن ما يبعدنى هو مبدئى المعروف الذى

كتبت عنه كثيراً : إن الحاكم لا يريد من المفكر تفكيره الحر بل تفكيره الموالى . إنه يريد أن يسمع منه تأييداً لا اعتراضاً ورسالة المفكر فى جوهرها هى الصدق والحرية . وهو قد يخطىء ويخدع ويفقد الوعى ولكنه لن يخون رسالته عن وعى . وإنى أخشى دائماً أن تحجب الصداقة والقرابة والحب والعاطفة ، وحتى الكره والسخط ، النظرة الصادقة إلى حقائق الأشياء . ولقد حاولت على قدر المستطاع فى كتابى « سجن العمر » أن أصور أقرب الناس إلى وهما الوالدان بما لهم وما عليهم تصويراً خالياً من القداسة التى اعتادها الناس فى بلادنا ، نحو أهلنا ، وتعرضت بذلك لغضب الأحياء من ذوى القربى واستهجان المتحفظين من القراء ...

الحاكم المطلق

وسارت الأمور سيرها المعروف ، وأصبح عبد الناصر هو الرجل الأول فى البلاد . وكان كل يوم يكتسب حب الناس وثقتها . حتى أولئك الذين استولى على أطيانهم للإصلاح الزراعى بدأ الكثير منهم يعتاد تحديد الملكية ويتأقلم . إلا الذين لا أمل فى ولائهم . وبدأت البلاد تعتاد حكم فرد وثقوا به وأحبوه . والجماهير عندما تحب لا

تناقش . وخفتت شيئاً فشيئاً أصوات من اعتادوا المناقشة . وأخذ الحاكم المحبوب نفسه يعتاد الحكم الذى لا مناقشة فيه ، وأخذ الستار الحديدى يسدل رويداً رويدا بين الشعب وتصرفات الحاكم المطلق . كنا نحبه ولا نعرف دخيلة فكره ولا الدوافع الحقيقية لتصرفاته . كان القلب منا يخترق الستار إليه . ولكن العقل ظل بمعزل عنه ، لا يصل إلى فهم ما يجرى خلف الحجب . لم نكن نعرف من أمورنا أو الأمور الخارجية إلا ما يلقى هو به إلينا من فوق منصة عالية ، فى عيد من الأعياد أو مناسبة من المناسبات . وكان يتحدث بمفرده الساعات الطوال — بغير كلفة — حديثاً يظهرنا فى صورة أبطال بقيادته . ويظهر الدول الكبرى حولنا فى صورة أقزامٍ . فكنا نصفق إعجاباً وخيلاء . وعندما كان يخطب بقوة قائلاً عن دولة قوية تملك القنابل الذرية: «إذا لم تعجبها تصرفاتنا فلتشرب من البحر» كان يملؤنا الفخر.

الثقة شلّت التفكير ..

وليس بعجيب أن يتلقى الشعب فى حماس العاطفة هذه الخطب بالتهليل والتكبير . ولكن العجيب هو أن شخصاً مثلى محسوب على البلد من أهل الفكر وقد أدركته الثورة وهو فى كهولته يمكن أن ينساق

هو أيضاً خلف الحماس العاطفى . ولا يخطر لى أن أفكر فى حقيقة هذه الصورة التى تصنع لنا ... لعلى كنت أبرر ذلك لنفسى بأنه رفع لروح الشعب المعنوية . وليس فى هذا ضرر ظاهر ما دامت النتائج السيئة لم تزل بعيدة ... كانت الثقة فيما يبدو قد شلت التفكير . كنت أحياناً أستغرب أشياء وأقول لنفسى أمن الصواب حدوث ذلك ؟.. أذكر يوم جاءنى صاحبى الصحفى اللامع صديق عبد الناصر بنسخة من كتاب « فلسفة الثورة » مهدى إلى من مؤلفه الزعيم . أنى فكرت بعد قراءته : كيف يصحّ لسياسى أن يكشف ورقه للعالم هكذا ؟

إسرائيل توزع كتاب « فلسفة الثورة »

وحدث أنى اطلعت بعد ذلك على مقال فى جريدة فرنسية بقلم أستاذ من أساتذة التاريخ والسياسة الفرنسيين . حلل الكتاب تحليلاً علمياً وبين ما فيه من أحلام وآمال وتصورات تكاد توحى بالرغبة فى إنشاء ما يشبه الإمبراطورية الواسعة للدول العربية والأفريقية التى تنتظر الزعيم الذى يؤلفها . أو على حد الكتاب نفسه فى إشارته إلى مسرحية « بيرانديللو » الشهيرة « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » فهو يرمى إلى أن « دول العروبة وغيرها تبحث عن زعيم » .

وأدهشنى بعد ذلك ما جاء فى بعض الصحف العالمية : إن كتاب فلسفة الثورة هذا تتولى توزيعه فى الخارج جهتان فى نفس الوقت : السفارة المصرية . والسفارة الإسرائيلية .

وبالطبع كان غرض السفارة الأخيرة من ذلك إفهام العالم أن زعيماً من طراز هتلر قد ظهر فى العالم العربى .. ولكن الحقيقة أن عبد الناصر رجل سلام . ولم يفكر قط فى الحرب تفكيراً فعلياً . إنه رجل عواطف وانفعال وخيال . وقد جاء بكتاب للصحفى اللامع (محمد حسين هيكل) أن عبد الناصر فى أوائل عهده ، كان قد أعد خطبة يلقيها ، ويعلن فيها خطة أو رؤية للسلام فى المنطقة . غير أنه سمع من السفير الأمريكى ، وقتئذ ، كلمة استقبله بها فى زيارة فلم تعجبه الكلمة ، وانفعل وغير خطبته واتجاهه فى الحال . وكان لهذا المسلك الانفعالى تأثيره على مصير الوطن كله .. كما سارت الأمور كلها بعد ذلك فى شئون الدولة خارجها وداخلها على هـذا المسلك وبهذا المحرك : « انفعال ورد فعل » .

الانفعال ورد الفعل

ومن يدرس بعناية الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية التي وقعت في مصر على مدى حكم عبد الناصر ، يجد أن المحرك الخفي الحقيقي لها كان هو « الانفعال ورد الفعل » وليس التفكير الهادئ ، الرصين الرزين المبني على بعد النظر . فعبد الناصر ظهر فيما بعد من النتائج التي نجني أخطاءها حتى اليوم أنه لم يكن رجلاً سياسياً و لم تكن له قط طبيعة رجل السياسة ، التي يملكها رجال اتصل بهم وعرفهم ، مثل « نهرو » و « تيتو » . ومن المعروف أن نهرو قال لعبد الناصر في عبارة رقيقة موحية أنه يحتاج إلى قليل من الشعر الأبيض . وهو يقصد بلا شك قليلاً من الرزانة والحكمة والتجربة . وقد ظهر فيما بعد أن نهرو على حق ، وأن عبد الناصر لم يستطع تحقيق عدم الانحياز كما استطاع تحقيقه بطلاه الحقيقيان نهرو وتيتو . فهما سياسيان حقاً . فقد كان عبد الناصر أقرب إلى طبيعة الكاتب الفنان الحالم العاطفي ، ويظهر أن الظروف هي التي دفعته إلى طريق غير طريقه . ولو أنه ترك لطبيعته لكان كاتباً ناجحاً . ولعل هذا ما خطر له أول الأمر فقد اتجه بالفعل في مطلع شبابه إلى كتابة القصة . وكتب

صفحات من قصة بعنوان « فى سبيل الحرية » جعل اسم بطلها محسن . أيضاً كاسم بطل « عودة الروح » . ولكن الظروف حولته من مؤلف محسن على الورق إلى محسن نفسه ، أيضاً على أرض الحياة . فعاش مثله وتصرف تصرفاته الشخصية الوطنية العاطفية الانفعالية . حتى فى المسائل البعيدة عن السياسة وشئون الحكم تبدو طبيعته العاطفية والانفعالية .

انفعل من أجلى

فعندما حدث يوماً أن هاجمنى بعض أدباء الشباب هجوماً مركزاً بغرض تحطيم الأصنام . وكانت المقالات تصدر كل صباح مليئة بالاتهامات ، للإطاحة بالكاتب والنزول به عن مكانه . لم آخذ أنا الأمر مأخذ الجد . ولم ألق بالاً إلى ذلك ولزمت الهدوء والصمت . وإذا بـ (عبد الناصر) هو الذى انفعل . وإذا هو فى فورة انفعاله ودفعة رد الفعل ؛ يصدر قراراً بمنحى أكبر وسام فى الدولة . وقد راجعه كبير تشريفاته ، بأن هذا الوسام لا يمنح إلا لرؤساء الدول وأولياء العهد . وأنى موظف فى درجة وكيل وزارة لا يحق له حمل مثل هذا الوسام . فلم يأبه بكلامه ..

هذا الاندفاع العاطفى كنا نحبه منه . لأننا عشنا طويلاً فيما مضى مع رجال حكم حذرين مترددين باردين ، لا ينتقلون خطوة إلا بعد طلوع الروح . ولكم قاسينا من ذلك . فإذا ظهر لنا حاكم عاطفى متحمس يخطو بسرعة وبجرأة فإن هذا بالنسبة إلينا شيء جديد . ولم يكن انفعال عبد الناصر واندفاعه قد ظهرت له بعد آثار خطيرة أو نتائج مدمرة . بل كان فيه ما يحمسنا نحن أيضاً ويشعل فينا ، بالعدوى ، لهب الانفعال وروح النشاط .

اتصال على البعد

وأنا على وجه الخصوص كيف لا أحب رجلاً يحبنى ويقف جانبى فى كل موقف ، دون أن أراه أو أوجه إليه كلاماً أو شكراً .. لم أتصل به إلا على البعد . وفى بعض المواقف القومية التى رأيت من واجبى أن أنبهه إليها أو أشجعه عليها .... مثل ذلك اليوم الذى جمع فيه لجنة تحضيرية من أهل الرأى ، تمهيداً لعقد المؤتمر القومى ... كنت فى حجرتى مريضاً أتابع على شاشة التليفزيون جلسات هذه اللجنة التخصيرية . كانت فيما أذكر برياسة « أنور السادات » ولكن « جمال عبد الناصر » كان يحضرها ويشترك فى مناقشاتها . وقد

أعجبنى فى هذه المناقشات روح الحرية . وكان الجدل يحتدم أحياناً بين بعض الأعضاء وجمال عبد الناصر رئيس الجمهورية ، حول مفهوم الديمقراطية ، وقد ظهر « عبد الناصر » فى تلك المناقشات المحتدمة ، واسع الصدر طويل الصبر ، يبدى رأيه ويشرحه ويتلقى المعارضة القوية بحجج أمام حجج دون تبرم أو ضجر ، حتى استبانت وجهات النظر ، وقوى عندى الأمل فى اتجاه الحكم فى مصر ؛ الاتجاه الصحيح .

والحكم الصحيح فى نظرى لم يكن قط هو الدكتاتورية . ففى كتابى « شجرة الحكم » الذى طالبت فيه وتنبأت بالثورة المباركة جاء فيه أيضاً ما نصه : « على أن نقدى للنظام النيابى لا يعنى أنى أطالب بإلغائه ، فزوال هذا النظام من عالمنا الذى نعيش فيه يفضى إلى مشكلات لا حل لها ... والانتخاب على عيوبه هو الوسيلة التى لا بد منها ما دام الناس هم أصحاب الرأى فى تنصيب حكامهم ... ... » .

لذلك لم أتمالك أن أرسلت إليه برقية أقول له فيها إنى رأيت وأنا على فراش المرض صورة جديدة لمصر تتشكل أمامى . فرد على ببرقية يشكرنى ويتمنى لى الصحة . وإذا المؤتمر القومى ينعقد . وإذا المناقشات فيه قد اختفت . وإذا الأعضاء الذين كانوا يناقشون فى الديمقراطية المطلوبة لزموا الصمت المطبق لا فى المؤتمر وحده ولكن فى

الحياة العامة . وكأن شيئاً من الإهمال أو عدم الرضى قد شملهم وأصبح هذا المؤتمر وغيره من الاجتماعات مجرد كتل بشرية لا عقل لها ولا تفكير يميزها ، ولا رأى مستقل يصدر عنها وإنما هى أذرع تلوح وأياد تصفق وأفواه تهتف ، والزعيم بقامته الفارعة قائم على منصة عالية يتكلم وحده الساعات الطوال ، لا يقاطعه غير صياح هستيرى : « ناصر ، ناصر » وشعارات تنطلق من كل ركن ، مما يستحيل معه الظن بأن أحداً من الحاضرين قد فهم فى هذ الضوضاء شيئاً مما يقول . فقد أصبحت الحناجر هى العقول . وما كان يبدو على الزعيم ضيق بذلك ، وإنما كانت ابتسامة الرضى ترتسم دائماً على شفتيه .

أصبح المعبود المعصوم

لقد أصبح معبود الشعب . ولست أدرى هل كان هذا حلماً قديماً له ؟... بدأت أسائل نفسى بعد أن تأكدت مظاهر العبادة لشخصه على مر الأيام ، ما الذى كان يعجبه فى كتاب « عودة الروح » ؟أترى هل الفقرة التى تروى ما معناه أن مصر تحتاج دائماً إلى معبود من بينها ؟ فلما قرأ ذلك وهو شاب صغير حلم بأن يكون هو ذات يوم المعبود ؟وليس هذا بالشىء المكروه . فكل إنسان له الحق أن يحلم بأن

يكون معبود الجماهير . ولكن المكروه بل الخطر هو أن يكون للمعبود البشرى من القداسة ما يجعله معصوماً من الخطأ فى نظر الناس ، وما يجعل سلطانه يشل العقول فلا ترى غير ما يرى ، ولا يسمح لها برأى يخالف رأيه . وهذا ما حدث بالفعل . ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث نرى الأمور على مثل هذه الصورة : العقل المصرى وقد ختم عليه بسبعة أختام ، فلم يعد يجرؤ على أن يخرج علناً رأياً مخالفا لرأى الزعيم المعبود . أعوام طويلة مضت وفى مصر صحافة وفيها مجلس نيابى ، وفيها اتحاد اشتراكى ، هو الحزب الواحد الذى يضم كل عناصر الشعب ، ويقال إنه أعلى سلطة فى البلاد .... هل سمع صوت واحد على صفحات جريدة ، أو كتاب أو مجلس نيابى ، أو اجتماع عام ، جرؤ أن يبدى رأياً يختلف عن رأى « عبد الناصر » ؟ وإذا كان قد جرؤ فهل تمكنه السلطة من توصيل هذا الرأى المعارض حيث يسمعه ويعرفه الآخرون ؟. أقول إن هذه ربما كانت أول مرة فى تاريخ مصر الحديث يحدث فيها أن يظهر معبود أراد أن يكون لإرادته فى كل البلاد العربية من القداسة والعظمة والسلطة ما لم يكن يملكه الأنبياء والرسل . فالأنبياء المرسلون من السماء كانوا يجدون من يجادلهم ويناقشهم ويعارضهم .

سعد المعبود كان حراً

ولقد عرفت مصر فى تاريخها القريب زعيماً معبوداً ، هو « سعد زغلول » قائد ثورة ١٩١٩ . ذلك الذى التفت حوله مصر بأكملها ، ووضعت فيه أملها ، وأصبح أسطورة فى نظر الفلاحين ، حتى لقد سمعت وقتئذ فى الأرياف من يؤكدون أن بعض أوراق شجر القطن قد نبتت واخضرت ووجد مكتوباً عليها اسم « سعد زغلول » ... هذا الزعيم لم تمنع عبادة الشخص له من وجود معارضين يخالفونه الرأى ، وصحف وخطب تمتلئ بالآراء والأقوال التى تناهضه وتقف ضده ، بل إن صحيفة معارضة تناولته بالتجريح وهو زعيم الأغلبية ورئيس الحكومة ، واحتكم إلى القضاء ونُظِرت القضية ، ولكن القضاء المصرى العادل لم يعط الحق لرئيس الحكومة وحكم ببراءة المعارض .

وأنا شخصياً على الرغم من حبى لـ« سعد زغلول » وحرصى على سماعه وهو يخطب من شرفة بيته المسمى « بيت الأمة » اقتنعت بالرأى الذى يخالف رأيه فى مسألة من المسائل، كان ذلك يوم انقسمت الآراء فيمن يذهب إلى لندن لمفاوضة الإنجليز فى قضية الاستقلال لمصر .

كان على رأس الوزارة وقتئذ «عدلى يكن» وكان رجلاً مستقيماً موثوقاً به، وطلبت الحكومة البريطانية أن يكون المفاوض المصرى ذا صفة رسميه مثل رئيس الحكومة المصرية، لأن الطرف البريطانى سيكون هو أيضاً ذا صفة رسمية. ولكن «سعد زغلول» أصر على أن يكون هو المفاوض باعتباره زعيم الأمة، وأصرت بريطانيا العظمى التى خرجت منتصرة من الحرب الكبرى الأولى، وأصبح نفوذها فى العالم يشبه نفوذ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى مجتمعين، كانت حجتها أن الحكومات لا تفاوض إلا الحكومات. ولا يمكن لحكومة مسئولة أن تفاوض زعيم ثوار، غير مسئول رسمياً، حتى وإن كان فعلياً زعيم أمة.

وخطب « سعد زغلول » خطبته المشهورة التى وصف فيها مفاوضة (عدلى يكن) رئيس الحكومة المصرية مع حكومة جلالة الملك جورج فى ذلك الوقت بقوله : « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » .... وكان أن تعقدت الأمور وكاد يتوقف النشاط السياسى من أجل طلب الاستقلال . وقال رأى من الآراء : ما الذى يضير « سعد زغلول » ـ أن يترك « عدلى يكن » يذهب ويفاوض ويأتى بنتيجة مفاوضته ويعرضها على الأمة بزعامة « سعد زغلول » ، وله عندئذ أن يرفض أو يقبل . هذا ما قاله « عدلى يكن » أيضاً ورأى فيه تقوية لمركزه فى المفاوضة ، لأنه سيخيف الإنجليز بـ « سعد »

الرابض المنتظر صاحب الكلمة النهائية آخر الأمر ، وكان هذا هو المسلك الذى اتبعه زعيم الأمة التركية « كمال أتاتورك » . ففى ذلك الوقت بالذات كان على تركيا أن ترسل وفداً يفاوض فى مؤتمر الصلح فلم يذهب (مصطفى كمال) وترك رئيس الوزارة (عصمت إينونو) يذهب ويفاوض . فكان « عصمت إينونو » إذا عرض عليه أمر صاح : لن يقبل هذا « مصطفى كمال » والأمة معه . وقد أعجبنى هذا الرأى ، و لم أقف فى جانب رأى « سعد زغلول » وأنا فى شبابى الأول ، على الرغم من حبى له وإعجابى به وبخطابته الرائعة البليغة . تلك هى الزعامة والعبادة التى تقوم على الرأى الحر ، ولا تقوم على الدبابات والمعتقلات ... ومن العجب أن يكون مفهوم الرأى الحر قد استمر فى مصر على نحو ما حتى فى العهود التى بدأ الفساد يدب فيها . فلقد حدث أن جاء « مصطفى النحاس » إلى الحكم على أثر انتخابات ظفر فيها بالأغلبية . وكنت يومئذ مديرًا لإدارة الإرشاد بوزارة الشئون الاجتماعية ، فنشرت مقالاً فى جريدة الأهرام بعنوان « الخواتم الثلاثة المزيفة » أشير فيه إلى أن الأحزاب الموجودة فى البلد كلها مزيفة .

ومصطفى النحاس

فهاج « النحاس باشا » وهو يرأس مجلس الوزراء : « يقول عنا إننا مزيفون مع أننا فزنا بثقة الأمة وحصلنا على الأغلبية الساحقة » كان هذا كل شيء ، ولم أمس بأذى ، مع إنى كنت موظفًا فى الدولة ومدير الارشاد فى الحكومة ، الذى من واجبه على الأقل أن يكون مرشدًا وداعية لحكومته ، لا مهاجمًا ومتهمًا لها بالتزييف ، ولكنى كنت فى نظرهم كاتبًا حرًا قبل كل شيء ، يعبر عن رأيه الشخصى ، وليس مدفوعًا من حزب آخر يعمل لحسابه ولذلك احتملوا الرأى الحر وإن كان قد يضايقهم ..

على أن فكرة الزعيم المعبود الذى لا تتنافى عبادته مع نقده ، قد رأيناها ممثلة فى فرنسا فى عهد شارل ديجول . فهو أيضًا على الرغم من تقديس الفرنسيين له باعتباره بطلاً قوميًا ، فإن ذلك لم يمنع من وجود المعارضين لرأيه فى البرلمان والصحف والكتب . وكان هو ، أول الضاحكين لما يرسم له من كاريكاتور ونكات وانتقادات تسخر منه فى بعض المجالات ، وكانت أقسى الصحف هجومًا عليه وعلى سياسته الخارجية والداخلية مجلة « الأوبزرفاتور » . كان يكتب فيها رئيس

تحريرها السياسى (شريبير) معارضًا بعنف آراء ديجول . فيرد عليه فى نفس المجلة الكاتب الروائى « فرانسوا مورياك » مدافعًا عن صديقه (ديجول) . الذى منحه أكبر وسام فى فرنسا . ولذلك عندما جاء (سارتر) فى زيارة لمصر منذ أعوام سألنى ، لماذا لا أدافع أنا أيضًا عن عبد الناصر وأكتب فيه كتابًا يمجده ، كما فعل « مورياك » فى كتابه المعروف عن ديجول ؟ فقلت « لكى يكون هناك دفاع يجب أن يكون هناك هجوم . وعبد الناصر لا يهاجمه عندنا أحد . ولا يجرؤ فى بلادنا أحد على مخالفة رأيه » .

حقًا إذا جرؤ أحد وهاجم رأيه فكيف يستطيع صاحب الرأى المهاجم أو المخالف أن يعلن هذا الرأى . فى أى جريدة ؟ وفى أى مكان ؟ إن رقباء الصحف والإذاعات ورجال المخابرات ونحو ذلك من وسائل النظام المطلق المغلق لا تسمح بظهور المعارضة ولا حتى بمعرفة الرأى المخالف أو صاحبه .. وحتى معنى المعارضة يشوه فى الحال ويلصق بصاحبه الخيانة أو الانحراف أو الانتماء إلى عمالة أجنبية أو عقائد تخريبية ...

سحر وحلم

ولكن هل كان قد ظهر بصورة جدية وعلنية أن لعبد الناصر رأيًا في ذلك الوقت له من الخطر والضرر ما يقتضى أن نخالفه ؟ ربما كانت هناك أشياء ولكنها كانت تبدو لنا مما يمكن التجاوز عنه إلى جانب الخير المنتظر منه .. وفى الحقيقة أنه إلى ذلك الحين كان قد غمرنا فى سحر أو حلم لا ندرى كيف غمرنا فيه . ربما كان سحره الخاص كما يقولون عندما يتحدث إلى الجماهير . وربما كان الحلم الذى جعلنا نعيش فيه بتلك الأمانى والوعود . بل تلك الصور الرائعة لإنجازات الثورة التى حققها لنا ، وجعلتنا أجهزة الدعاية الواسعة بطبلها وزمرها وأناشيدها وأغانيها وأفلامها ، نرى أنفسنا دولة صناعية كبرى ورائدة العالم النامى فى الإصلاح الزراعى ، وأقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط . وكان وجه الزعيم المعبود وهو يملأ شاشة التليفزيون ، ويطل علينا من فوق منصات السرادقات وقاعات الاجتماعات ، ويحكى لنا الساعات الطوال هذه الحكايات ويشرح لنا كيف كنا وكيف أصبحنا ، بلا أحد يناقش أو يراجع ، أو يصحح أو يعلق ، فما كنا نملك إلا أن نصدق ثم نلهب الأكف بالتصفيق .

(عودة الوعى)

تنظيم التصفيق والهتاف

غير أن هذا النظام لم يكن يكتفى بالتصفيق العفوى والهتاف المرتجل ، بل إن الاعتماد الأساسى عنده على التدبير والتنظيم . وقد رأيت بنفسى ولم أصدق عينى . قابلت ذات يوم رجلاً من أهل الريف أعرفه . سألته عن سبب وجوده فى القاهرة ، فقال إنه متصل بلجنة الاتحاد الاشتراكى فى قريته . وأنهم أحضروه هو وزملاء له فى القطارات باستمارات سفر أو نحو ذلك للاحتشاد فى استقبال الرئيس جمال عبد الناصر عند عودته من الخارج فى مناسبة من المناسبات . لأن الاستقبال شعبى كما يقال عادة . وإن إقامتهم وطعامهم على حساب الدولة . وأن عليه هو وزملاؤه أن يهتفوا له طبقًا للشعارات المطبوعة والموزعة عليهم . وأخرج لى من جيبه بالفعل ورقة أطلعنى عليها . فدهشت . لقد كان مكتوبًا عليها بحروف مطبوعة هذه العبارات : هتاف جماعى : « ناصر ناصر ناصر » .. ثم هتاف فريق : « فليحيا ناصر العروبة » ثم هتاف جماعى : « فليحيا بطل الثورة » .. « القائد البطل » .. « زعيم الأمة العربية » .. إلخ . أشياء من هذا القبيل ، وسألت : كيف يهتفون من هذه الورقة . فقال إن الورقة لا تظهر

فهى للحفظ فقط حتى لا ننسى الكلمات ، وإنه معين لكل جماعة منهم أربطة ، أول الصف أو فى الوسط ، أو على رأس كل مجموعة يشير إليهم بالبدء .. كما يحدث فى كورال الموسيقى وكورس المسرحيات .

كنت أظن الشعبية تنبع فقط من القلوب . أو حتى من صور الأمانى والوعود والأوهام والأكاذيب . ولكنى ما كنت أظن حتى تلك اللحظة ، أنها يمكن أيضاً أن تصنع وتؤلف تأليفاً وتوزع لها أوراق هتاف كأنها نوتة موسيقية للغناء .

ومع ذلك وهنا العجب : كيف استطاع شخص مثلى أن يرى ذلك ويسمعه ، وأن لا يتأثر كثيراً بما رأى وسمع ، ويظل على شعوره الطيب نحو عبد الناصر :... أهو فقدان للوعى ؟ أهى حالة غريبة من التخدير ؟.

هذه الحالة العجيبة التى أصابتنا يجب أن تكون يوماً محل دراسة وتحقيق ... أفهم أن يكون الشعور هو الاشمئزاز أو الغضب ، وعندئذ كان لابد وخاصة عند شخص مثلى أن أعبر عن ذلك ببعض التصرفات أو الكتابات ، مهما تكن النتيجة ، كما اعتدت أن أفعل فى كثير من الأحوال . ولكن الغريب هو أنى اكتفيت بالابتسام فى تسامح ... لماذا ؟... لعله الأمل الذى وضعته فى عبد الناصر — إنه من صنع

خيالى . وصورة للزعيم الذى كنت أنتظره من ثلاثين عاماً . كما كتبت ذات يوم .

اتفاق الجلاء !

فلم أكن و لم تكن مصر على أى حال فى مجموعها قد شعرت بعد بالضيق من شىء خطير ... على العكس ، لقد كنا نهضم بسهولة كل ما نضيق به ولا يبقى فى نفوسنا منه أثر . فقد كنا مستبشرين بالغد شأن الأب الذى يحلم بالمستقبل الزاهر لابنه ويغتفر له كل هفواته أملاً فى نجاحه فى الامتحان ، ولا يدخر وسعاً فى تلبية طلباته انتظاراً لليوم الموعود ، ولا تتفتح عيناه إلا يوم يفشل ابنه فى الامتحان (كامتحان يونيه سنة ١٩٦٧) فيبدأ الأب فى مراجعة الهفوات ومحاسبة الانحرافات (وحتى بعد الفشل علّلنا الأخطاء وصبّرنا الابن الفاشل بانتظار الملحق) لذلك لم تكن عيوننا ترى إلا الحسنات . و لم تكن آذاننا تطرب إلا للنشيد الواحد الذى يعزف فى كل مكان « مكاسب الثورة » وحتى الحقود أو الموتور الذى كان يهمس بالتشكيك كان يكفى الرد عليه بأنه ما دامت ليست هناك خسائر فهذا فى ذاته مكسب . ومن يحب الثورة مثلى كان أميل إلى التغاضى والتسامح ،

عندما يتضح الشك ويكاد يسفر عن يقين . من ذلك أنه جاءنى ، يوم أن وقع رجال الثورة على وثيقة جلاء الإنجليز ، بعض رجال الأحزاب السابقة وأطلعونى على بنود الوثيقة قائلين لى إنها نفس البنود والشروط التى سبق عرضها على مصر ورفضتها الأحزاب جميعاً . فمن بين هذه البنود شرط يبيح للإنجليز العودة إلى احتلال مصر ، إذا تعرضت المنطقة لأخطار الحرب كما أن السودان وبقاءه مرتبطاً بمصر ، كان دائماً الشرط الأساسى ، لكل مفاوض مصرى على اختلاف الأحزاب . وأذكر بالفعل أنى كنت جالساً فى مأتم للعزاء فى وفاة أحد المعارف ، كان ذلك قبل الثورة بنحو عشرة أعوام . فدخل مصطفى النحاس وكان يومئذ فيما أظن خارج الحكم ، وأخذ يتكلم مع من معه بصوته المرتفع المسموع ويقول إن الصخرة التى كانت تتحطم عليها المفاوضات المصرية دائماً من أجل إجلاء الإنجليز هى السودان ، ولو سمح لنا بطرح مسألة السودان جانباً لتم الجلاء منذ عشرينات هذا القرن . ولكن ما من سياسى فى البلد كان يسمح لنفسه بذلك . وما كان البلد ليسمح له . ومضت الأعوام وجاءت الثورة وتركت السودان ووقعت الوثيقة مع الإنجليز على الجلاء المشروط أيضاً بعودتهم . ففيم إذن كان انتظار مصر ثلاثين عاماً ؟ كانت هذه الملاحظة تبدو مقنعة . ولكنى كنت أقول : ما دمنا قد خلصنا من

الاحتلال على أى حال فهذا خير من التجمد الدائم . والعبرة بالتحرك والالتفاف إلى بناء نهضة مصر . والثورة قد أزالت هذا الدمل من جبين مصر لتفرغ إلى ما هو أهم . وهى ماضية الآن فعلاً نحو النماء الاقتصادى المنشود .

ومشروع السد العالى

وها هو ذا مشروع السد العالى سيكون — كما تصفه لنا الثورة — فاتحة خير وبركة . وهو مشروع كان موجوداً فى أدراج حكوماتنا السابقة . ويبدو أنه فحص ولم ينفذ ، إما لضخامة تكاليفه وإما لأسباب أخرى لم تكشف لنا بوضوح ولم تتم مناقشته مناقشة علنية مفتوحة ليعرف الناس الرأى وضده ، ولكن الثورة تبنته فآمنا به جميعاً . ولم نسمع بأحد عارضه ، إلا مهندس كبير هو الدكتور عبد العزيز أحمد ، ويظهر أنه أحس بغضب الثورة عليه ، فغادر البلاد وعندما فاز فى غيبته بجائزة الدولة التقديرية فى العلوم ، وقد اختاره لها أكابر علماء البلد من زملائه وتلاميذه ، رفضت الثورة منح الجائزة له . ولم تعرف بشكل مفصل أسباب معارضته للمشروع . لأن الآراء المعارضة حتى فى المسائل العلمية لا تأخذ حظها من النشر .

بلا مناقشة

فأسلوب الثورة لم يقم على أساس مناقشة الأشياء . وهو الأسلوب الذى كنا نعرفه فى مصر من أيام ثورة ١٩١٩ . بل كنا نعرفه قبل ذلك . وأذكر فى شبابى الأول أن أرادت الحكومة إنشاء خزان جبل الأولياء ، فأنا أكتب من الذاكرة ، فإذا المشروع يناقش علنًا فى حضور الشعب . و لم يكن فى البلاد بعد برلمان . وحدث أن عارض المشروع أحد المهندسين المصريين فأعلن عن محاضرة فى قاعة مسرح « برنتانيا » (مكان سينما كايرو بالاس الآن) ، فذهبنا . وكان صباح يوم جمعة . وامتلأت الصالة بالناس . وجعل المهندس المصرى يفسر رأيه بالرسم والأرقام على سبورة ويفند ويعارض رأى المهندس الإنجليزى (ولكوكس) ، ومصر وقتئذ تحت الاحتلال الإنجليزى ولكن ذلك لم يمنع مصر من أن تحاول بنفسها أن تخلق فيها الرأى العام الذى يسمع ويناقش ويميز ويحكم ... غير أننا عندما قامت ثورة ٥٢ وأجبناها وأيدناها بقلوبنا طمعاً فى مستقبل أفضل ، لم نكن نناقش أى مشروع تؤيده . وربما لم نكن نستطيع . ولعلها هى لم ترد أن تشجعنا على ذلك . ولذلك بادرت هى للفوز تسعى إلى تنفيذ

مشروع السد العالى واعتمدت فى تنفيذه على أميركا بالطبع . فأمريكا هى التى وقفت بجوار الثورة عند قيامها وأسكتت الإنجليز المرابطين فى القناة ، وإلا لكانوا جاءوا بدباباتهم وطائراتهم وأجهضوا الثورة فى نصف ساعة . ولكن العلاقات بين الثورة وأمريكا ما لبثت أن توترت للأسباب المعروفة وغير المعروفة فقد قيل إنه حتى ذلك التوتر كان مخططاً له فى السياسة الأمريكية ليؤدى إلى إخراج إنجلترا وفرنسا من المنطقة وتسليم قناة السويس لمصر فى مقابل فتح خليج العقبة لإسرائيل .. وهذا ما نفذ بالفعل فى ١٩٥٦ باتفاق سرى بين أيزنهاور وعبد الناصر وظل أمره مخفياً إلى عام ١٩٦٧ ... وهكذا كان أن تعمد وزير خارجية الولايات المتحدة مستر « دالاس » ذلك القول الذى أغضب « عبد الناصر » فكان رد فعله الانفعالى المعتاد والمتوقع دائماً لدى أمريكا ، كما كان معروفاً أيضاً لدى السوفييت ووصف خروشوف مشهور يوم قال عن عبد الناصر إنه شاب مندفع انفعالى ... (صفحة ١٩٦ من كتاب عبد الناصر والعالم لمحمد حسنين هيكل) ... وبالفعل صدر تأميم القناة مع دفع تعويضات . وفى وقت لم يبق فيه سوى أقل من عشرة أعوام لانتهاء امتياز هذه القناة ، وعودتها قانوناً إلى ملكية مصر بدون دفع أى شىء . وكانت مصر تعد نفسها بالفعل لاستلام القناة . وأذكر أن صديق عمرى

المرحوم حلمى بهجت بدوى ، الذى زاملنى فى مراحل الدراسة حتى باريس ، وساكننى فى شقة الجيزة يوم كان هو أستاذاً بكلية الحقوق وكنت مديراً لتحقيقات المعارف ، عندما عين وزيراً للتجارة والصناعة فى عهد الثورة ، وكان قبلها قد رفض أن يكون وزيراً للمالية فى حكومة حسين سرى باشا ، فكر فى مشروع يسير جنباً إلى جنب مع القناة بعد استلامها . هذا المشروع هو مد أنابيب بترول من السويس إلى بور سعيد أو الإسكندرية . وذلك لحث الشركة العالمية على سرعة تسليمها القناة لمصر ، ولأسباب أخرى اقتصادية . وقطع شوطاً كبيراً فى دراسة هذا المشروع والإعداد لتنفيذه ومفاوضة الشركات ليعرف التكاليف ، وكانت يؤمئذ مشجعة غير مرتفعة . ووافق عبد الناصر على هذا المشروع ثم عاد فرفضه . وها نحن اليوم نعود إليه ونفكر فى تنفيذه .. وكان حلمى بهجت بدوى فى مهمة بأوروبا يوم تأميم القناة . وفوجئ بذلك . وعاد إلى مصر فعينه عبد الناصر تقديراً لكفاءته رئيساً لهيئة القناة بعد تأميمها . وكان هو أول رئيس لها شارك فى إدارتها بكفايته الفذة . حتى وافاه الأجل المحتوم .

العدوان الثلاثى « المفاجئ » ..

وبعد التأميم قامت القيامة المعروفة . وكنت أنا أول المتحمسين لهذا التأميم وكان تجيئنى من يقول بارتياع إن هذا التأميم جنونى . إن هذا التأميم كارثة على البلد . فكنت أهب فى وجه من يقول ذلك هبة غضب شديد . وعندما جاءت الجيوش والطائرات إلى بور سعيد وبدأ العدوان الثلاثى أرسلت برقية إلى عبد الناصر أقول فيها « إنى وأنا كهل يسير نحو الستين مستعد لحمل السلاح » ... كنت فى ثورة ١٩٥٢ وفى كهولتى أفكر بقلبى ، وكنت فى ثورة ١٩١٩ وفى شبابى أفكر بعقلى .. ولست أدرى سبباً لذلك .. قناة السويس كانت دائماً مطمع أنظارنا ، وها هى ذى فى يدنا . والباقى لا يهم . ولكن كانت هناك مع ذلك ومضات فكر تجعلنى أتأمل بعض الأمور وأعجب لها . فلا أنس خطبة الجمعة المشهورة التى أعلن فيها عبد الناصر أنه لم يكن يظن أن بريطانيا ، ستشترك حقاً فى العدوان على مصر مع إسرائيل ، لأن ذلك فى نظره يعرضها لغضب العرب . وأنه لم يعرف باشتراكها إلا عند سماعة أزيز الطائرات البريطانية ، فصعد إلى سطح منزله ليتأكد من ذلك بنفسه . قلت فى نفسى : صح النوم .. كيف كان رئيس دولتنا يجهل هذا الأمر ، وأنا الذى ما ارتبت لحظة فى أن بريطانيا

جادة فى الحرب ، منذ أن قرأت وسمعت البرقيات والإذاعات تتحدث عن اجتماعات إيدن بقواده . وإصدار الأوامر إلى السفن الحربية فى مالطة والقاعدة الجوية فى قبرص بالاستعداد . بل إن بعض هذه السفن قد أعدت فعلاً وتحركت بالجنود فى اتجاه الشرق الأوسط ، لعل عبد الناصر قد فهم أن هذا كله من قبيل التهويش . ولكنى أنا قد أخذت الأمر مأخذ الجد لأنى استبعدت على حكومة جادة مسئولة فى دولة كبريطانيا تعد الجيوش والسفن وتعبئ الجهود ، وتنقل الجنود وتتكلف النفقات لمجرد التهويش . والموقف لم يكن يستدعى ذلك لأنه كانت هناك حلول معروضة بالفعل . ولكن لأسباب مختلفة كان إيدن كما ظهر من لهجته وإصراره قد قرر انتهاز الفرصة لإعادة النفوذ البريطانى إلى المنطقة .. كيف إذن خطرت لعبد الناصر هذه الفكرة : إن إيدن عندما كان يلوح بالحرب ويجرى الاستعدادات لها على هذا النحو إنما كان ذلك مجرد تهويش ؟..

يهوّش بالحرب

إن الإنسان أحياناً يرى الأشياء والأشخاص من خلال طبيعته . فهل كانت طبيعة عبد الناصر هى التهويش ؟. إذا راجعنا ظروف حرب ١٩٦٧ ونشر جيوشنا كلها فى سيناء بشكل استعراضى هائل ، وتكديسنا هناك لكل دباباتنا الجديدة والقديمة ، وكل جنودنا المدربين وغير المدربين ، تضخيماً للعدد وتكبيراً للمظهر وإرهاباً بالمنظر ، دون أن تكون هناك نية هجوم حقيقى ، نجد أن المقصود هو الوصول إلى الهدف بالتهويش وليس بالعمل الفعلى . وهذا يؤكد ما أعتقده من أن عبد الناصر فى داخليته رجل سلام . على الرغم من كلامه العنيف — إنه رجل يريد السلام ويهوش بالحرب . فى حين أن إسرائيل تريد الحرب وتهوش بالسلام . وبذلك خدعت العالم ، وجعلت نفسها فى صورة الأمة الضعيفة المسالمة المهددة بعدوان دولة تفوقها عدداً وتجعجع بالحرب لتلقى بها فى البحر . ومن يهوش بالسلام ويريد الحرب يكسب الحرب . ومن يهوش بالحرب ويريد السلام يخسر الحرب ويخسر السلام . وهذا كان حالنا ...

كذلك استمعنا فى خطبة الجمعة المشهورة أيضاً إلى ذلك الخبر

المطمئن الذى أعلنه الرئيس عن نجاحنا فى سحب جيوشنا من سيناء عام ١٩٥٦ وكانت قد اندفعت إلى هناك عند بدء العدوان الثلاثى ، فلما رأى الرئيس أن الهزيمة فى الأفق أصدر أمره فى الحال بالانسحاب ، وقد تم على أحسن وجه وحمد الله وحمدناه معه .

ونفس الخطة سنة ١٩٦٧

ويظهر أن رئيسنا قد حفظ هذه الخطة حفظاً . وكررها بحذافيرها فى حرب ١٩٦٧ . ذلك أنه ما كادت الهزيمة تقع فيها أيضاً حتى بادر بإصدار أمر الانسحاب المعهود ... ولكن شتان بين الحالين والظرفين والوضعين .. ففى العدوان الثلاثى كان جيشنا فى بداية زحفه فأمكن سحبه . وكانت الحملة مركزة على بور سعيد ، وكانت أكبر دولتين فى العالم متفقتين على ضرورة وقف الحملة فى الحال وانسحاب المعتدين . وكانت هذه أول مرة فى نظر العالم المتعجب تتفقان فيها على شيء . وهددتا معاً تهديدهما العنيف المعروف ، فلم يجد المعتدون بداً من التراجع على الفور . وأزيلت آثار العدوان بسرعة لا تخطر على بال . وهرول العدوان الثلاثى راجعاً من حيث أتى فلم تمض ثلاثة شهور حتى كان كل شيء قد عاد إلى أصله . وكأن شيئاً لم يقع ،

ولكن ما كل مرة تسلم الجرة .. وكلمة إزالة آثار العدوان ليست مما يحفظ حفظاً ويتحقق بسهولة فى كل الأحوال . ففى العدوان الثلاثى كانت الصورة مختلفة . فالأسدان الكبيران ما كانا يريدان السماح لبعض وحوش صغيرة أن تبسط نفوذها على الشرق الأوسط وتتحكم فى قناة السويس . فهبا معاً هبة واحدة وزأرا الزئير الذى أخاف الضبع والذئب والثعلب الصغير ، فهربت جميعاً تاركة خلفها الفريسة فى الأرض . لا حول لها ولا طول . وكانت بور سعيد قد سقطت فى أيدى المعتدين من أول وثبة وانتهى أمرها . كانت الإسماعيلية فى متناول المخالب والأنياب . ولكن الفزع من الأسدين جعل هذه المخالب والأنياب ترتد عن الفريسة وتولى الأدبار ...

الفريسة تهتف : انتصرنا ...

ونهضت عندئذ الفريسة التى نجت بمعجزة وأخذت تصيح فى الآفاق : انتصرنا .. انتصرنا ... وتزعق الأناشيد فى الأبواق ، مشيدة بمعركة تماثل معركة ستالينجراد ، قيل إنها فى بور سعيد ... وقد لا يكون فى ذلك ضرر ولا بأس . فما من عيب فى رفع الروح المعنوية للشعب ولكن الضرر هو أن يكون الغرض هو خداع الناس ،

وليس رفع الروح ، أن نتلاعب بكلمة النصر لنخفى عن الشعب أسباب عجزنا عن الدفاع عن أرضنا . وقد ظهرت نتيجة ذلك فيما بعد . فقد كان من جراء خداعنا لأنفسنا وتصديقنا للأكاذيب التي نذيعها عن أنفسنا وللتهاويل التى نضعها ونطلقها فى الإذاعات والأناشيد والأغنيات أن قمنا ننشط للمغامرات الحربية .

مغامرة اليمن

فما كادت قناة السويس تستقر فى أيدينا بأعجوبة فى عام ١٩٥٦ ونرى ذهبها يلمع فى أكفنا ، حتى مضينا نلقى به على تلال اليمن . وكانت قبائل اليمن التى نريد استمالتها إلى جانبنا لا ترضى بغير الذهب . فكانت تلقى إليهم من طائراتنا الزكائب الممتلئة بالأصفر الرنان . كما كانت ترمى من الجو لجيوشنا أطنان التموين والغذاء من صفائح الجبن الفاخر والمعلبات واللحوم والفواكه . ولكن الشمس الحارقة وعدم وجود ثلاجات كان يفسد هذه الأطعمة ، فتترك فى أماكنها مكدسة وقد لعب فيها الدود وانتشرت منها رائحة العفن ، فلا يقربها أحد ، وأهل مصر من الجياع والمحرومين لا يعرفون أن طعامهم هذا الذى يتمنونه ملقى للحشرات على تراب اليمن السعيد . وهل استملنا مع

ذلك قبائل اليمن بذهبنا ؟ قيل إن القبائل حتى الموالية لنا ، كانت تأخذ ذهبنا بالنهار وترصد لضباطنا وجنودنا فى الليل ، فتصطادهم وتجز رؤوسهم وتبيعها للطرف الآخر غير الموالى ، ثم بعد ذلك انتهى الأمر باليمن كلها أن سارت مخالفة لمصر فى اتجاهها السياسى . إن تاريخ حرب اليمن سيكتب يوماً فى صفحات صادقة لنعرف حقيقة ما جرى هناك . وماذا كانت النتيجة التى خرجنا بها ؟ إن من المؤكد الآن هو أنه بالإضافة إلى الأرواح التى ضاعت من جيوشنا وتقدر فيما يقال ، بعشرات الآلاف من الرجال ، فإن المعروف أيضاً أن غطاء الذهب الذى نملكه قد ضاع بأكمله فى هذه الحرب الضائعة ، وضاع معه أملنا فى تحسين حالنا ...!

وحرب وهزيمة ثالثة

ولكن هل اكتفينا بحربين وهزيمتين ؟ لا ... لا بد من الثالثة ... وكانت حرب وهزيمة ١٩٦٧ . أى أنه فى مدة نحو عشرة أعوام من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٧ قد استهلكنا ، أو على الأصح ، استهلكتنا ثلاث حروب بثلاث هزائم ، لا ندرى بالضبط كم كلفتنا من آلاف الأرواح ، ولا كم من آلاف الملايين من الجنيهات إنما الذى ذكر ونشر

هو أن ما خسرناه فى الحروب الأخيرة وحدها يقدر بنحو أربعة آلاف مليون جنيه . أى كما قيل أيضاً إن هذا المبلغ لو أنفق على قرى مصر البالغ عددها أربعة آلاف قرية ، لكان نصيب كل قرية مليون جنيه ، تخلقها خلقاً جديداً وترفعها إلى مستوى قرى أوربا ... ولكن قرانا المصرية بقيت على حالها المحزن التعس وفلاحنا المسكين بقى على جهله ومرضه وفقره . وراحت آلاف الملايين التى جاءت من عرق مصر لتذهب فى الوحل . وفوقها هزيمة منكرة . بل فوق الهزيمة المنكرة أكثر من خمس سنوات حتى اليوم تمر على مصر ، وهى راكدة بلا حرب ولا سلم تنفق على جيشها المعطل من الأموال ما يكفى — كما قال محمد حسنين هيكل فى مقاله بالأهرام بتاريخ ٢١ يولية ١٩٧٢ — لبناء السد العالى مرتين ، أو سدين عاليين كل عام نبنيهما ثم نهدمهما ليسقطا فى التراب ...

ما حكم التاريخ

ما هذا الجنون ؟ وماذا سيقول التاريخ فى هذا الذى جرى فى عهد هذه الثورة ، وهو الذى قال ما قال عن عهد الخديوى إسماعيل ، لأنه استدان بضع عشرات من الملايين أنفقها فى مد السكك الحديدية وفى تعمير البلاد وإدخال زراعات جديدة وفى بناء قصور بقيت لنا على كل

حال حتى الآن ، كمنشآت استخدمتها المصالح والوزارات على مدى سنوات ، ثم فى بناء أشياء أخرى مثل دار الأوبرا التى انتفعنا بها كمصدر إشعاع فنى وأدبى على مدى أجيال ، وفى غير ذلك مما سمى فى وقت ما ترفاً أو سفهاً ، وما هو ، فيما يمكن أن يقال إلا بعض مظاهر الحضارة العصرية التى أراد لمصر أن تلحق بها ... وإذا كان التاريخ قد أدانه ، فهل نطمع فى أن يبرئنا نحن ؟ إنى أرجو أن يبرىء التاريخ عبد الناصر . لأنى أحبه بقلبى . ولكنى أرجو من التاريخ أن لا يبرىء شخصاً مثلى ، يحسب فى المفكرين ، وقد أعمته العاطفة المحبة للثورة عن الرؤية ففقد الوعى بما يحدث حوله . لقد كانت ثقتى بعبد الناصر تجعلنى أحسن الظن بتصرفاته ، وألتمس لها التبريرات المعقولة ، وعندما كان يخالجنى بعض الشك أحياناً ، وأخشى عليه من الشطط أو الجور كنت ألجأ إلى إفهامه رأيى عن بعد وبرفق وأكتب شيئاً يفهم منه ما أرمى إليه . فقد خفت يوماً أن يجور سيف السلطان فى يده على القانون والحرية فكتبت (السلطان الحائر) . ثم خفت أن يكون غافلاً عما أصاب المجتمع المصرى قبيل حرب ١٩٦٧ من القلق والتفكك ، فيعتمد عليه فى الإقدام على مغامرة من المغامرات فكتبت (بنك القلق) . وهى كلها كتابات مترفقة بعيدة عن العنف والمرارة ، لمجرد التنبيه لا الإثارة ، وكما علمت فقد قرأها وفهم ما

أقصده منها . ولكنه فيما ظهر لم يأخذ بها ، بل اندفع فى طريقه ... و لم يكن من السهل مع ذلك أن أنشر كتاب « بنك القلق » . فقد ظل هذا الكتاب أكثر من نصف عام حبيس الرقابة لا تسمح بنشره إلى أن سمع المسئولون أنه قد ينشر فى الخارج فاضطروا إلى السماح بنشره اضطراراً . وفوق ذلك فإنى لم أكف عن كتابة ما أراه مما اعتبروه خطراً . وفى أدراج مسئول كتابات لى لم يسمح لها بالظهور حتى اليوم . وبعضها كان يقرأ سراً كالمنشورات الخفية . فالقلم لا يستطيع أن يسكت ، حتى مع وجود الحب ونقص الوعى .. فالمعارضة والاحتجاج على ما علمنا به من فساد قد فعلناه بالكتابة فيما نشر وفيما لم يسمح بنشره ، وبالتبليغ المباشر إلى صاحب الشأن شفوياً أو خطياً . ولكن القضية ليست هنا . فالصوت الفردى قليل الجدوى مهما تكن وسيلته وشجاعته . القضية هى فى غياب الصوت الجماعى الممثل به الهيئات السياسية والقضائية والعلمية والجامعية والثقافية . أين شجاعتها ؟ ولماذا لم يصدر عنها صوت أو حركة ولو رمزية تدل الحاكم المطلق على أن البلاد واعية تنبض بالحياة ؟ ولكنها لم تتحرك دفاعاً عن الحرية أو الكرامة ، إما غفلة منها أو انقساماً بعضها على بعض . ولست أبرئ نفسى بهذا لأننى أعتبر أن إدانتى الحقيقية هى فقدان الوعى الكامل بالوضع وأنا فى الشيخوخة وبعقل يعيش

بالتفكير .. ولا تفسير لذلك سوى أن مصر عاشت فى فترة حجبت عنها كل المعلومات وأخفيت كل الحقائق ، وأعلنت كل الأكاذيب بكل وسائل النشر والإذاعة والإعلان ...

آية السخرية

إن ما حدث لى يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ وما بعده لآية من آيات السخرية التى تثير الدهشة والعجب ... كنت متهيئاً للخروج فى الصباح ، وإذا صفارات الإنذار تدوى على غير انتظار ، فحسبتها مجرد تجربة من تجارب الغارات الجوية ، وخرجت إلى الطريق فإذا هرج ومرج ، وإذا هى غارة جوية حقيقية ، وإذا بمتطوعى الدفاع المدنى من الشباب يقفون فى وجه السيارات يحولونها من شارع إلى شارع ، فارتبك المرور وتكدست السيارات وسدت مداخل الطرقات لا تدرى أين تتجه ، ومن آن إلى آن تسمع طلقات سريعة متلاحقة للمدافع المضادة للطائرات .

وذهبت إلى مكتبى بجريدة « الأهرام » فوجدت أحد سعاة المكتب فى يده راديو ترانزستور صغير ، يعلن فى كل ربع ساعة بياناً من المسئولين فى وزارة الحربية أو قيادة الجيش ، أننا أسقطنا للعدو مائة

طائرة ، وعندما جاء الظهر كان عدد ما أسقطناه من الطائرات قد بلغ قرابة المائتين . أما فى المساء فقد ارتفع العدد إلى ما لا أذكر من أرقام . فما شككت فى أن العدو قد انتهى أمره . وسرت فى شوارع القاهرة من ميدان التحرير إلى ميدان سليمان باشا فإذا لا فتات كبيرة علقها الاتحاد الاشتراكى كتبت عليها عبارات النصر ، ثم عبارات تقول « إلى تل أبيب » ...

وكان الجو كله الذى حولنا يكاد يشعرنا بأن دخول جيوشنا فى تل أبيب لن يتأخر عن التاسعة مساء من نفس اليوم ٥ يونيو ١٩٦٧ . ولكن جاء اليوم التالى والبيانات العسكرية تشير إلى اشتداد المعارك فى سيناء ، فرسمت فى رأسى صورة لخطة جيوشنا الظافرة ... فلما دخل على زائر صديق يقول لى فى قلق وحزن إنه سمع من الإذاعات الأجنبية أن العريش قد سقطت فى يد العدو ،.وأن جيوشنا تتقهقر باستمرار لم يظهر على أى انزعاج ، وقلت فى هدوء وابتسام وبلهجة الوثوق التام : اسمع ... أنت لا تفهم خطة جيوشنا .... لقد اتضح لى الآن أنها لا تقصد الوصول إلى تل أبيب ولا التوغل فى أرض العدو . إنما هى تريد استدراج جيشه إلى أعماق صحراء سيناء والقضاء عليه . لأن احتلال أراضيه أمر قد تقوم له قيامة هيئة الأمم ومجلس الأمن فينتهى الحال إلى التراجع عنها ، كما حدث له هو يوم احتل غزة وبعض سيناء

عام ١٩٥٦ واضطر مرغماً إلى الانسحاب عنها . أما تحطيم قوته العسكرية وإنزال الخسائر الجسيمة بها فهو لا شك هدف أهم وأبقى فى نظر قيادتنا . هذه هى الخطة . وهذا هو سر التراجع والتقهقر فى صفوفنا . ولبثت مطمئناً إلى تفسيرى هذا . ومضت الأيام التالية ، وقواتنا مستمرة فى تراجع يشبه الركض ، تاركة فى شبه هرولة كل المواقع من شرم الشيخ إلى رفح ، وأنا لا أزال هادئاً مبتسماً بتفسيرى وبالخطة العسكرية التى أنشأها خيالى ..

هزيمة غير معقولة

ذلك أنه لم يكن من الممكن عقلاً ومنطقاً أن نصدق بسهولة أن جيوشنا يمكن أن تهزم فى بضعة أيام . لقد لبثنا الأعوام وهم يروون عنها الأعاجيب ، ويجعلوننا نرى فى كل عيد من أعياد الثورة استعراضات عسكرية تحوى أحدث طراز من الدبابات ، ونرى فيها الصواريخ التى سميت « القاهر » و« الظافر » ونرى فرقاً يطلق عليها اسم الصاعقة تركض وهى تهدر هديراً مخيفاً ، ونرى جنوداً تهبط من الأعالى وتقفز فوق الجدران ، وتمزق وتأكل الثعابين ... ثم سمعنا فى الخطب عن قوة طيراننا التى لا مثيل لها فى الشرق الأوسط ، وأبصرنا أسرابها وهى

ترعد فى السماء وجعلنا ندفع من عرق الجبين طيلة سنين ضرائب دفاع وطنى وأمن قومى علاوة على المستحقق من الضرائب العادية اقتطعت من لحم الشعب الذى حرم نفسه الكثير تدعيماً لجيشه . وكانت الدعاية لهذا الجيش تجعل أكثر الناس تشاؤماً وتشككاً فى الثورة يقول كما سمعت ذلك بنفسى من أفواه ذلك الطراز من الناس : « ربما كانت الثورة فاشلة فى كل شيء إلا — والحق يقال — فى الجيش ، فرجالها أصلاً رجال جيش وهو عماد وجودهم وقد أنفقوا عليه ما أنفقوا ، فإذا اختل كل شيء فى المجتمع على أيديهم ، فلا يمكن أن يصل الخلل إلى الجيش .. » كان هذا النفر من المتشككين فى الثورة يقول فى صباح ٥ يونية ١٩٦٧ : نعم سينتصر جيشنا على العدو وبالطبع « سننتصر وهذا شيء مفروغ منه ، لكن العبرة بالنتيجة ، والنتيجة كارثة إذا تدخلت أمريكا مباشرة ضد مصر » لم يكن إذن من الممكن لشخص واحد ، سواء أكان مع الثورة أم ضدها أن يشك فى قدرة الجيش المصرى على صد العدو وقهره ، وزاد التأكد يوم شاهدنا فى التليفزيون رئيسنا يواجه الصحفيين الأجانب الموفدين من أكبر صحف العالم ليسألوه قبل ٥ يونية والأزمة مستحكمة عقب إغلاقه خليج العقبة ، ماذا هو فاعل إذا جاءت السفن الحربية من بريطانيا أو أمريكا لفتح هذا الممر المائى الذى أغلقه ؟ فأجاب بثقة القادر :

« سيجدون هناك قوة لا يتصورونها ».

ما شككت وأنا أشاهد ذلك وأسمعه فى التليفزيون أن هناك صواريخ ذرية فى الانتظار . لم يخطر ببالى قط أن مثل هذا الكلام قد يكون من قبل التهويش . والظاهر أنه كان فى خارج بلادنا من يزن مثل هذا الكلام الوزن الحقيقى . فقد سمعت ، ولا أذكر فى أى تاريخ ، أن عضواً فى الكونجرس الأمريكى قال وهو يقرأ خطباً من مثل هذا القبيل لعبد الناصر : « هذا الرجل يبلف » ... ولكننا فى مصر ، ما كان أحد منا يرتاب أو حتى يراجع قليلاً حقيقة ما يلقى علينا . هل كنا مسحورين ؟ كما سبق أن قلت ... أو أنها الثقة التامة فى زعيم وضعنا أملنا به ؟ أو أننا اعتدنا هذا النوع من الحياة الذى جعلتنا الثورة فيها مجرد أجهزة استقبال داخل صندوق مغلق علينا مع الأكاذيب والأوهام ....

وهكذا لبثت حتى يوم الخميس ٨ يونية وأنا أعيش داخل وهم خططهم العسكرية . وكلما قيل عن تقهقر لجيوشنا ازداد اعتقادى بأن الخطة تطبق بإحكام ، وأن هذا التقهقر هو عملية التفاف حول جيش العدو ، وحركة كماشة واسعة للتضييق عليه ، إلى أن اتصل صديق بالتليفون قبيل منتصف ليل ذلك اليوم الخميس ليخبرنى أنه قد أعلن رسمياً فى مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة ، أن مصر قبلت وقف

إطلاق النار . فأفقت قليلاً : كيف قبلت مصر ذلك وهى منتصرة ؟ ثم شط خيالى مرة أخرى وفسرت الأمر على أن قبول مصر التوقف عن المضى فى انتصاراتها إنما جاء نزولاً على رجاء أمريكا ، ووعدها بتعويض مصر بمعونات مغرية فى نظير هذا التوقف عن إطلاق النار ...

الحقيقة المذهلة

لم أعرف الحقيقة ويعترينى الذهول إلا فى يوم الجمعة ٩ يونية ... فقد ظهر أننا خسرنا الحرب منذ الساعات الأولى من يوم ٥ يونية .... وعندما رأينا وجه الرئيس فى شاشة التليفزيون يعلن الهزيمة ويخففها بلفظ النكسة ، لم نصدق أننا بهذا الهوان ، وأن إسرائيل بهذه القوة ... وكان أكرم له وأعظم لو أنه اختفى عن أنظارنا فى ذلك اليوم و لم يواجهنا بكلام . ربما كان خيالنا قد ضخم لنا صورة آلامه التى لا يمكن أن تحتمل ... ولكننا مع ذلك تأثرنا وعاد فامتلك عواطفنا لعلمه وقوله أننا شعب عاطفى . وأنسانا الهزيمة وجعلنا نرقص ، حتى فى مجلس الأمة لمجرد وجود شخصه بيننا بدلاً من أن نسائله ولو برفق ومحبة عن أسباب الهزيمة لنعرف أمراضنا حتى نتهيأ للصحة ، لا أن

ندعه ليكتم المرض ويخنق الحقائق ليبقى الفساد كما كان ، خشية على تصدع مركزه — لم يكن بالطبع هذا الشعب فى حالة طبيعية من الوعى كأى شعب آخر فى مثل هذه الظروف ، يسائل زعيمه على الأقل بوعى حاضر ولا أقول يحاكمه أو يطالبه بدفع ثمن الهزيمة كما فعل الشعب الفرنسى مثلاً الذى لعن نابليون وتركه للنفى بعد معركة واترلو ... وأخذ هو يجدد حياته بدونه وبنفسه . مع أن زعيمه شرفه بانتصارات عسكرية مجيدة ساد بها أوربا كلها ناشراً مبادئ الثورة الفرنسية ومبشراً بالوحدة الأوروبية . لقد تركوه يدفع ثمن هزيمته الوحيدة . تلك الهزيمة التى تسبب فيها أحد مارشالاته بتخاذله عن اللحاق به فى المعركة ، لقد عاش هذا المارشال « جروش » ولم يمس وتحمل نابليون كل الذنب والمسئولية ... أما عندنا فإن قائدنا الخالد بهزائمه العسكرية المتلاحقة التى غامر فيها بأموال شعب فقير ليحتل أرضه فى النهاية عدو صغير ، بقى ليتنصل من هزيمته ويجعل مشيره هو الذى يدفع عنه الثمن بانتحاره ، ويقدم قواده إلى المحاكمات وتلقى عليهم التبعات . وحتى من أراد أن يكتب تلميحاً عن فساد أو هزيمة أو نكسة فيجب إبعاد شخص الزعيم عن كل مسئولية ، فالمسئولون دائماً هم الآخرون .... وهكذا استمر هو فى كرسى الحكم على مصر والزعامة الناصرية على العرب جميعاً — تلك الزعامة التى خربت مصر

ونكبت العرب ــ ونحن ليس لنا حيلة ولا قوة إلا التعلق به لأنه جردنا طول الأعوام من كل فكر مستقل ومن كل شخصية قوية غير شخصيته هو . وقد نجح فى ذلك إلى حد جعل كل شخصية فى بلادنا حتى فى مجال العلم والفكر والثقافة تشعر بضآلتها إلى جانب ضابط صغير من أعوانه . ولذلك عين لرئاسة المجلس الأعلى للجامعات والمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ضابطاً صغيراً فى السن وفى درجة التعليم وجعل علماءنا الكبار يجلسون أمام رئيسهم الضابط الصغير متأدبين . وإذا تلقوا تكريماً أو مكافأة فمن يديه هو لمن كان مرضياً عنه أما غير المرضى عنه فيحرم . ولم يظفر فعلاً بالرضى وحرم من جائزة الدولة التقديرية بعض مفاخر بلادنا ومنهم الدكتور عبد الحميد بدوى القانونى العالمى الذى كان نائباً لرئيس محكمة لاهاى الدولية رغم ترشيحه مراراً من عارفى فضله . كما سبق أن حرم بالأوامر نابغة المهندسين الدكتور عبد العزيز أحمد رغم انتخابه بالفعل من صفوة العلماء . وكاد يحرم كذلك رغم انتخابه الدكتور السنهورى مؤلف أكبر موسوعة قانون وواضع القوانين لكثير من البلاد العربية لولا المساعى التى بذلت وأهمها جهود « محمد حسنين هيكل » الذى حال دون التمادى فى مساوئ كثيرة لذلك العهد . سواء كانت هذه المساوئ من فعل الزعيم أو بعلمه أو من فعل

أعوانه وبغير علمه . ذلك أن رجال الأقدار لا تخفف من مسئولياتهم البواعث ولا التبريرات فهم باعتبارهم المسئولين عن مصائر الأمم يحاسبون فقط على النتائج ويتحملونها حتى وإن تسبب فيها آخرون فإليهم دائماً تنسب الفضائل والمكاسب كما تنسب المساوئ والخسائر .

ولكن الزعيم ولا شك مسئول شخصياً عن تعيين الضابط صغير السن والتعليم رئيساً لعلماء البلد ومفكريه فى حين أن نابليون عندما احتل مصر ومعه نخبة من علماء فرنسا وأسس فيها المجمع العلمى المصرى لم يجرؤ وهو نابليون على تعيين نفسه رئيساً لهذا المجمع العلمى بل جعل الرئيس هو العلامة « مونج » وجعل نفسه مجرد نائب عنه .. فلا عجب إذن أن نتمسك بزعيمنا بعد الهزيمة وأن نجعل وجوده الشخصى بديلاً من النصر أو مرادفاً له لأنه كان قد أشعرنا بكل هذه الوسائل أنه لا يوجد فى مصر ولا فى العالم العربى كله غير عقل واحد وقوة واحدة وشخصية واحدة هى « عبد الناصر » وبدونه لا يوجد شىء فلا رجال ولا عقول ولا قوى يعتمد عليها . وليس أمامنا إلا الضياع . وهكذا الفاشستية والهتلرية والناصرية كلها تقوم على أساس واحد هو إلغاء العقول والإرادات الأخرى ما عدا عقل وإرادة الزعيم . وكلها شاهدت هجرة العديد من العقول إلى الخارج كما حدث أيضاً

لكثيرين فى مصر . وكلها تترك بعدها شبحها مسيطراً ، وفى ميراثها خيولاً يركبها باسمها الطامعون والمغامرون ... إن فكرة الزعامة على العالم العربى هى التى أضاعتنا جميعاً . وهى التى استحوذت على فكر عبد الناصر وجعلته قوة مدمرة لنفسه ولمصر وللعرب . وهو درس يجب أن نعيه جيداً لمقاومة كل من تراوده نفسه على زعامة العرب ، والسيطرة عليهم بشخصه وبإرادته وأفكاره ... وهكذا بقى الزعيم موجوداً دائماً يمنينا بكلماته المعتادة عن النصر ... وعادت الأناشيد من جديد تردد كلما النصر ولكن النصر تغير مفهومه . وأصبح هو جلاء إسرائيل عن الأراضى التى احتلتها ، وعودتنا إلى ما كنا عليه قبل ٥ يونية ١٩٦٧ . ولقد كانت أمانينا الوطنية بالأمس انتهاء الاحتلال البريطانى عن أراضينا ، اليوم أمانينا الوطنية هى إنهاء الاحتلال الإسرائيلى عن أرضنا ... ونحن مستمرون مع ذلك فى ترديد شعار الثورة : « كيف كنا وكيف أصبحنا » .

ومرت على الهزيمة الأيام . وفى كل يوم يتضح لنا فداحة حجمها لا عن طريق إعلان الحقائق رسمياً . بل بأساليب ملتوية فى سطور غامضة عابرة تندس فى مقال صحفى نفهم منه أن الجيش قد أبيد وأسلحته ومعداته وأحدث دباباته وطائراته التى استنزفت دم مصر ، ضاعت مع الأرواح التى قدرت بعشرات الألوف والأموال التى

بلغت آلاف الملايين ، و لم تطلق مع ذلك طلقة واحدة ، وقال قواد دولة صديقة فى عجب : لو أن كل دبابة صمدت وأطلقت طلقة لتكبد العدو من الخسائر ، ما جعل الحرب تمتد إلى أجل معقول ، وجعل الهزيمة إذا وقعت ، هزيمة بشرف ... ولكنه القرار المعروف المألوف : قرار الانسحاب ... من أول نظرة !.. أى من أول نظرة إلى سوء الموقف .. أسلوب واحد هو طابعنا المميز فى حروب الثورة الناصرية : توريط أنفسنا ثم الانسحاب .

ولكن الانسحاب فى الحرب عام ١٩٦٧ كان باهظ الثمن . فظيعاً فى منظره ونتائجه وآثاره ... بل كان فى رأى الخبراء العسكريين مجزرة بشرية رهيبة . فالأمر بالانسحاب السريع لجيش كبير انتشر فى الصحراء واتخذ مواقعه بمعداته على مدى أسابيع ، ودعوته للجرى حافياً دون انسحاب فنى منظم ، تحت وابل نيران العدو لهو قرار أهوج من مسئول فقد أعصابه ويستحق المحاكمة . وهو ما لم يحدث . وسحقت مصر سحقاً بهزيمة لن ينساها التاريخ .

أين يقام التمثال

وتوفى عبد الناصر بعد ثلاث سنوات من الهزيمة ، ولا ندرى كيف أمكنه أن يعيشها . غلبت علينا جميعاً العواطف يوم وفاته . وأنا بنوع خاص . دفعتنى المشاعر ودواعى الوفاء فاقترحت إقامة تمثال له فى ميدان بالقاهرة . فجاءتنى خطابات محبذة متأثرة مثلى بالعاطفة وجاءتنى قلة من الخطابات مترددة ثم وجدت من بينها خطاباً يقول فيه صاحبه إنه موافق على إقامة التمثال ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس فى القاهرة بل فى تل أبيب . لأن إسرائيل لم تكن يوماً تحلم بأن تبلغ بهذه السرعة هذه القوة العسكرية ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضارى ، إلا بفضل سياسة عبد الناصر ....

انتهت الثورة

كان من الطبيعى أن تنتهى ثورة ١٩٥٢ فى يوم الهزيمة ، وهى فى الواقع تعتبر منتهية فى نظر التاريخ والمقصود طبعاً بكلمة الثورة هنا هو النظام الذى خرج منها . ذلك أن الثورات بمعناها الدقيق تنتهى عادة بمجرد تحويلها إلى نظام حكم رسمى . فثورة ١٩١٩ مثلاً انتهت بعد

أن أدت مهمتها باستقرار نوع من الحكم الملكى البرلمانى وتعيين زعيمها سعد زغلول رئيساً للوزارة . والقول بأن ثورة ١٩١٩ فشلت أو انتهت بقيام ثورة ١٩٥٢ هو قول غير دقيق . لأنها انتهت قبل ذلك بثلاثين عاماً بتحويلها إلى نظام حكم رسمى . كذلك الثورة الفرنسية انتهت وأدت مهمتها بتحول فرنسا إلى نظام حكم إمبراطورى فى عهد نابليون.والثورة الروسية أدت مهمتها بعد أن تسلم لينين السلطة واستقر نظام حكمه على نحو ثابت .. بل إن الثورة الإسلامية كانت قد أدت مهمتها باستقرار معاوية فى الحكم وتحولها فى عهد الأمويين إلى نظام ملك وراثى ... كذلك الحال فى ثورة مصر ١٩٥٢ فقد أدت مهمتها باعتلاء زعيمها رئيساً للجمهورية ، واستقرار هذا النظام الذى جعل رياسة الجمهورية رياسة مطلقة ...

هذا النظام الدكتاتورى فى جوهره وحقيقته هو الذى هزته الهزيمة هزاً وصفه الرئيس بأنه شرخ . وكان طبيعياً أن يتسع الشرخ وينهار النظام . وما حدث بعد ذلك حتى اليوم يعتبر من قبيل التقلصات العصبية العاطفية ، أو يعتبر من قبيل الدوار الذى يصاحب الوحم إيذانا بميلاد مصر جديدة ....

دراسة موضوعية

مهما يكن من أمر فإن هذه المرحلة من مراحل مصر ، التى استغرقت عشرين عاماً سوف تكون موضع دراسة مستفيضة . وهذه المرحلة يمكن كذلك تقسيمها إلى فترتين : الفترة الأولى وهى التى كان الحكم فيها جماعياً يشترك فيه كل من قاموا بالثورة ، وهى ثورة ١٩٥٢ الحقيقية . أما الفترة الثانية فهى الفترة التى انفرد فيها عبد الناصر بالحكم المطلق بعد تنحية مجلس الثورة وهى فترة ما يمكن تسميته بالثورة الناصرية . وأرجو لدارسيها بفترتيها أن يكون رائدهم العدل والموضوعية وأن لا تطغى على تفكيرهم الهادئ وبحثهم الرزين وحكمهم الرصين ، أى حزازة أو مرارة أو مجاملة أو مبالغة ، وأن تذكر لها ولقادتها المحاسن والمساوئ على السواء ، وأن يصوروا بأحجامهم الحقيقية وأن لا يقلدوا ثورة ١٩٥٢ أو نظامها فى الانتقاص أو الإغفال لثورة ١٩١٩ أو رجالها ، والرفع من شأن ثورة عرابى أكثر من قدرها ، فكشف ذلك لبعض الفاحصين عن عقدة ومرض وغرض إزاء ثورة ١٩١٩ لأنها كانت ثورة شعبية حقيقية ، وعن مدح وإشادة بحركة عرابى لأنها تشبه ثورة ١٩٥٢ فى أنها حركة

جيش قامت تطالب الخديوى توفيق بمطالب معينة كما قامت ثورة ١٩٥٢ كحركة جيش تطالب الملك فاروق بمطالب معينة . وكأن سخرية القدر شاءت أن يكون التشابه تاماً فجعل ثورة ١٩٥٢ تنتهى بهزيمة عسكرية واحتلال أجنبى ، كما كانت نهاية ثورة عرابى ..

كذلك لا ينبغى تقليد ثورة ١٩٥٢ فى تشجيعها على التزييف والنفاق وطمس الحقائق وجعل ثورة ١٩٥٢ هى تاريخ ميلاد مصر الحضارى . وأن ما قبلها هو الجاهلية . فى حين أن ثورة ١٩٥٢ ما كان يمكن أن تقوم إلا على دعائم قوية من نهضة مصرية حقيقية قامت فى الثلاثين سنة السابقة على قيام الثورة . وأن نقدنا وهجومنا فى كل ما كتبناه عن الحكم الفاسد ، إنما فقط كان هجوماً ونقداً على رجال الحكم من ملك وساسة وأحزاب .

من صنع الدولة ...

ففساد الحكم فى جانب ، وكانت فى الجانب الآخر مصر بعقولها وسواعدها وإرادتها الحرة . لقد كانت لثورة ١٩١٩ هذه الظاهرة العجيبة : وهى أنها أيقظت مصر ، دون اعتماد على حكام مصر وحكوماتها وساستها وأحزابها ، فمصر بعد ثورة ١٩١٩ فى حضارتها

وفكرها وفنها واقتصادها هى من صنع مصر ، وليست من صنع حكامها . أما بعد ثورة ١٩٥٢ فإن مصر هى من صنع الدولة أكثر مما هى من صنع نفسها . فإرادة الدولة وقراراتها المطلقة التى لا معارضة لها ولا مناقشة هى التى توجه كل شيء فى مصر ، حتى مجرد الفكر ، وهذا عكس ما حدث بعد ثورة ١٩١٩ . فثورة مصر السياسية عام ١٩١٩ عندما انتهت ، كانت ثورة مصر الحضارية والفكرية قد بدأت . وأن ثورة مصر السياسية انتهت بتحولها إلى نظام حكم ملكى . أخذ يظهر فساده عاماً بعد عام . ولكن الثورة الفكرية والحضارية بدأت تسير يوماً بعد يوم ، ويظهر تألقها ورسوخ أساسها بغير معونة الحكومات المشغولة عنها بنشاطها الحزبى والسياسى . إلى حد أذكر فيه أن مسابقة أدبية أعلن عنها فى العشرينات للتأليف المسرحى لم تفكر فيها الحكومة . بل الذى فكر فيها ودفع قيمة جوائزها فرد من الناس من جيبه الخاص . أما فى ثورة ١٩٥٢ فإن السياسة والفكر والحضارة وكل نشاط تقوم به يد واحدة وتخرج من رأس واحد .. وليس معنى ذلك أن ما صنعته دولة الثورة كان سوءاً كله ، أو أنه كان خالياً من النفع أو من حسن النية . وهذا ما أردت أن يكون البحث فيه قائماً على روح العدل والإنصاف والموضوعية التامة ، فمصر قد عرفت نظامين على مدى ثلاثين عاماً ، النظام

الديمقراطى على نحو ما ، ومن عيوبه التى لمسناها ونقدناها التطاحن الحزبى والجدل العقيم الذى يعرقل المشروعات النافعة ويبطىء تنفيذها . ومن مزاياه شىء من حرية القول والعمل والرأى والوعى المستقل : مع عدم المغامرات والمقامرات الخطرة ... ثم النظام المبنى على الحكم المطلق بإرادة فرد ، من مزاياه التنفيذ السريع لما يراه من مشروعات نافعة ومن عيوبه القرارات المتعجلة أو المفاجئة المبنية على المغامرات والمقامرات التى قد تورط الأمة فى ساعة واحدة وتوردها موارد الهلاك ... »

تقييم مكاسب الثورة

كذلك إذا طرحت يوماً للفحص مكاسب الثورة ثورة ١٩٥٢ فيجب فحصها بالموضوعية العلمية . بعيداً عن أى عاطفية . فمثلاً الإصلاح الزراعى يدرس من كل نواحيه . وهل وقف عند حد تحديد الملكية وتمليك الفلاح المعدم عدة أفدنة ، أو أنه كان إصلاحاً زراعياً بالمعنى الحقيقى زالت فيه جحور الطين التى تؤوى الفلاحين ، واختفت معه صورة الفلاح الفرعونى بمحراثه الخشبى وحلت محلها الآلات الحديثة وحررت البهائم من الأعمال الشاقة كما حدث فى

النهضات الزراعية الحقيقية وخصصت البهائم والمواشى لمد البلاد بالألبان واللحوم ؟ والتصنيع ماذا تم فيه ؟ وما حدوده وأسواقه ؟ وما الذى نجح منه وما الذى أخفق . بغير مغالاة ولا إجحاف . والاشتراكية ما حقيقة تطبيقها وما مداه ؟ هل هى مجرد التأميم ؟ تأميم الثروات وتأميم صراع الطبقات وتأميم العقول ووضع كل ذلك فى جيب واحد هو جيب الزعيم وفى إطار سياسى واحد واقتصادى واحد وفكرى واحد هو شخص وعقل وإرادة الزعيم ؟ وهل الاستيلاء على أموال وقصور طبقة لتحل فيها طبقة أخرى باسم آخر تماثلها فى الثراء وتتشبه بها فى الترف هى الاشتراكية ؟!. وهل الشعب سعيد حقًا لأنه يكفيه سماع أغانى الاشتراكية وهو غارق فى الشقاء الذى يراه الجميع لا داخل مساكنه أو جحوره بل تراه الأعين أيضاً معروضًا فى الشوارع أكداسًا من الآدميين يقفون الساعات الطويلة أمام المجمعات الاستهلاكية فى انتظار قطعة لحم يلقى بها إليهم وهم غير الملايين الأخرى المحرومة التى لم تعد تذكر طعم اللحم ، وأكوام اللحم الآدمى المتعلقة على أوتوبيسات مترنحة مهشمة فى مناظر تأباها الإنسانية وجماعات من البشر يعاملون فى مستشفيات قذرة معاملة الحيوانات الضالة المهملة .. والوحدة العربية التى نشأت قبل الثورة فى مشاعر الشعوب المتآلفة بالقلوب فى عالمنا العربى وكانت سائرة فى

طريقها بوسائلها الطبيعية ، هل نجحت الثورة فى تحقيقها بوسائلها السياسية وهل جمعتها وقوتها أو فرقتها وأضعفتها بأساليب التدخل والتزعم والسيطرة وبسط النفوذ وإغداق الأموال فى تدبير المؤامرات وتحريك الانقلابات وجعل العربى يقتل العربى فى حرب اليمن ويستخدم ضده النابالم الحارق والغاز الخانق ؟!... ويكفى الاطلاع على رأى خروشوف نفسه فى موقف عبد الناصر تجاه الدول العربية والوحدة وذلك فى رسالته الموجهة إلى عبد الناصر كما نشرت فى كتاب « عبد الناصر والعالم » لمحمد حسنين هيكل . جاء فى الصفحتين ٢٠١ و ٢٠٢ من ذلك الكتاب المطبوع فى دار النهار ببيروت ما نصه :

« تذكرون أنكم فى إحدى محادثاتنا — أثناء زيارتكم الأخيرة لموسكو — أعربتم عن الاستياء من حكومات الأقطار العربية المجاورة وسألتنى عما يجب عمله لتغيير الوضع الداخلى فى تلك الأقطار التى تقف موقف العداء من الجمهورية العربية المتحدة وعن المعونة التى يمكن الاتحاد السوفيتى أن يقدمها إليكم فى هذا الصدد (كان عبد الناصر فى موضع آخر من الرسالة قد طالب بصواريخ متوسطة المدى من الاتحاد السوفيتى) وكما تذكرون فقد أجبتكم بأنه يجب إظهار التسامح والامتناع عن التدخل فى شئون الدول الأخرى . إنما يجب

التأثير فى تلك الأقطار عن طريق القدوة الصالحة والمثل الطيب من جانب الجمهورية العربية المتحدة وذلك برفع مستوى اقتصاد شعب جمهوريتكم ومستوى ثقافته ورفاهيته وإنشاء نظام من شأنه تمكين كل القوى الوطنية ضمن الجمهورية من إظهار مبادأتها وأشرت عليكم بأن تسعوا إلى أن تقيموا فى الجمهورية العربية المتحدة ذلك النوع من الكيان الاقتصادى والنظام الحكومى اللذين من شأنهما أن يستهويا الأقطار العربية الأخرى من أجل الفوز بالحظوة لدى الشعوب بهذا المدى الإيجابى . وقد ابتسمتم بعدئذ وقلتم إننى غير واقعى فى استقرائى للوضع فى الأقطار العربية وأضفتم أن الأمر يتطلب تدابير أكثر حزمًا . وأجبتكم حينئذ قائلاً إن التدخل فى شئون الدول العربية هو شيء خطر جدًا وأنه ليس من شأنه أن يؤدى إلى الوحدة إنما من شأنه على العكس أن يؤدى إلى تفكك جهود الأقطار العربية . ولكن يبدو أننى أخفقت فى إقناعكم ويبدو أن كلاً منا تمسك حيال هذه النقطة بوجهات نطره ... » وهكذا جاء فى نص رسالة خروشوف أنه حتى هو نفسه كان يرى فيما يريد عبد الناصر فعله تدميراً للوحدة العربية ... ثم ثقافتنا على وجه العموم ومدارسنا وجامعاتنا وتعليمنا وحياتنا الفكرية عامة هل ارتفع مستواها أم انخفض بالثورة ؟... أى أن مستوى اقتصاد الشعب ومستوى ثقافته ورفاهيته كما قال

خروشوف هل حققتها الثورة الناصرية وشغلتها كما شغلتها الزعامة والسيطرة على مصر فى الداخل والعرب فى الخارج ؟... كل ذلك تجب دراسته بالعدل والحق ...

وفى الجملة هل ثورة ١٩٥٢ كانت ذات فائدة حقيقيـة لمصر والبلاد العربية أو أنها فترة معترضة لسيرها معرقلة لنهضتها ؟ وهل كانت نظامًا طبيعيًا أو نظامًا مصنوعًا نتج عن حركة آزرتها وخططت لها أمريكا لتزرع فى المنطقة أنظمة عسكرية على غرار ما فعلته فى أمريكا الجنوبية اللاتينية لتوقعها أن مصر وقتذاك كانت مهيأة فعلاً ومقبلة على نهضة ذاتية تنبت فيها الاشتراكية نبتاً طبيعياً شعبياً ويقوم فيها التصنيع والإصلاح والوحدة العربية على أسس صحيحة ثابتة ناضجة ، أو أن بلادنا ما كانت تبلغ من ذلك شيئاً إلا بعد جهد وزمن وأنه لا مكاسب يمكن أن تنالها بسرعة إلا عن طريق القرارات العسكرية ؟...

كل هذه الموضوعات والتساؤلات يجب أن تكون موضع دراسة بفكر طليق وعقل موضوعى . وكل البنود المعتاد ذكرها وترديدها من بنود مكاسب الثورة فى حاجة إلى غربلة دقيقة بعيدة عن الطبل والزمر والأناشيد والأغانى والشعارات اللفظية وتضخيم كلمة الناصريـة كأنها نظرية !..

ضياع وعى مصر

وأنا أفترض أن كل هذه المكاسب حقيقية . وأود من كل قلبى أن يسفر البحث النزيه عن ذلك .. ولكن هناك خسارة لا شك فيها ولا يعدلها عندى مكسب ، ذلك هو ضياع وعى مصر . ولو تصورنا رجلاً تسلط على ابنه و لم يترك له إرادة ولا اختياراً لشىء ، وجعل يغدق عليه كل الخيرات التى يرى هو أنها صالحة لابنه ، ويتخير هو له نوع الحياة التى يطالعها ، والكتب التى يقرؤها والأخبار التى يسمعها ، والأغانى التى ينشدها والسينما التى يشاهدها ، والطعام الذى يأكله والدواء الذى يعالجه والأصدقاء الذين يصادقهم والأعداء الذين يعاديهم ، وبالاختصار كل ما يتصل بحياته المادية والعاطفية والفكرية يجب أن يسير فى المجرى الذى يريده ويخطه الأب الحنون ، دون أن يقبل من ابنه مراجعة أو معارضة أو اختياراً حراً . ماذا يكون مصير هذا الابن ؟ وهل تنفعه كثيراً الخيرات والمكاسب التى أغدقت عليه ، وقد فقد مع مرور الزمن النمو الطبيعى لتكوينه العقلى والإرادى .. وأصبح شخصاً ضعيف الشخصية فاقد الوعى بذاته جاهلاً لمعنى المسئولية ، لأنه لم يتحملها يوماً بنفسه ، فأبوه الحنون

هو الذى يفكر له ويختار له ويقرر له القرارات المصيرية ، ويتحمل عنه كل المسئولية وهو جالس كالمعتوه ، يتلقى كل شيء من فم أبيه .

وهذا بالضبط كان حالى ، يوم جلست أمام التليفزيون بفم مفتوح كالبلهاء ، أستمع إلى انهيار مصر الثورة الذى تم فى بضع ساعات ... ثم استمر الطنين كالمعتاد من حولى فى الأناشيد الحماسية وأغانى المطربين والمطربات ولافتات الشركات : النصر ، النصر ، النصر ، شركة النصر لكذا ، وشركة النصر لكيت ، وسيارة نصر ، ومصنع نصر ، ومتجر نصر ... وكل شيء نصر فى نصر فى نصر ... إلى حد مضحك يثير سخرية أى إنسان عاقل ... ولكن مصر لم تعد تعقل ولم تعد تعى أنها أصبحت مضحكة بهذه الألفاظ والأوصاف . فقد كانت تصدق من أرادوا أن يجعلوها تصدق أنها تعيش غارقة فى الانتصارات ، انتصارات الثورة ، أيامك كلها انتصارات ...

لم يكن فينا رجل يقول أو يستطيع أن يقول : كفوا عن ترديد كلمة النصر هذه التى نطلقها بغير وعى ولا معنى على كل شيء يصادفنا ... إن البلاد التى انتصرت فعلاً الانتصارات العسكرية أو العلمية أو الحضارية لم تكثر هكذا ولم تسرف فى ترديد هذه الكلمة فى كل موضع وبمناسبة وغير مناسبة بلا حياء .. أما والهزائم قد توالت علينا فما هى دواعى الاستمرار فيما قد يثير السخرية ، إلا أن يكون

هو الاطمئنان إلى أن الوعى العام مفقود .. أتراه كان تخطيماً مقصوداً لوعى مصر ؟.. إن الكتب المدرسية فى أيدى الشباب تضخم أمجاد الثورة تضخيماً تشتم منه رائحة التزييف والملق ، وتترك فى ظلام اللاوعى صفحات مشرقة لعهود أخرى ..

ما عذر الكهول ؟

ولكننا نحن كهول الثورة ما عذرنا ؟ ما الذى خدر عقولنا ؟ فينا من يقول إن إجراءات عنيفة قد اتخذت لمنع تكوين رأى عام حر يناقش ويعارض ، وإنها الرقابة المشددة على كل ما ينشر ويذاع ثم الاعتقالات لمن يشتبه فى رأيه المخالف مع ألوان من التعذيب بلغت فظاعتها مبلغ الأساطير ، مما لا بد أن يحقق فى صحته يوماً من الأيام . ولكننى لا أنسى على الأقل تعذيب أستاذ جامعى فاضل نعرفه هو الدكتور عبد المنعم الشرقاوى الذى عذب تعذيباً جسمانياً بلغ من بشاعته أن أنكر شكله أهله ومعارفه . وكان قد اتهم فى قضية تهريب نقد وما أن خرج من المحكمة بحكم البراءة حتى وجد بانتظاره على الباب ضابط مخابرات بسيارة قادته إلى المصير المجهول والتعذيب الفظيع ، ولم أكد أعلم بذلك من شقيقه الشاعر عبد الرحمن الشرقاوى ومن أستاذه المرحوم

الدكتور مصطفى القللى ــ الذى اضطهد بعزله من مجلس إدارة الجامعة لمجرد الدفاع عنه فى المحكمة ــ حتى كتبت فى الحال كلمة أقول فيها : « هذه لطخة سوداء فى جبين الثورة لا يمكن الدفاع عنها أمام التاريخ » وأرسلتها إلى من يوصلها إلى عبد الناصر ... وكنت حتى وقتئذ أحسن به الظن ولا أصدق أنه مسئول ، ولكن الإشاعات راجت عن معذبين كثيرين . منهم من كان يؤتى إليه بزوجته أو ابنته أو أخته للاعتداء على عفافها أمامه ... كل هذه الفظائع سمعناها واقشعرت لها أبداننا . فهى مما لم تكن تعرفه مصر من قبل حتى لقد قيل إن هذه الأساليب فى التعذيب هى من أساليب الهتلرية النازية وإنه قد استقدم بالفعل فى مصر بعض الضباط السابقين من النازيين للتدريب على أساليب التعذيب . ولكن العجيب هو أن يحدث لأستاذ جامعى هذا التعذيب ولا تتحرك الجامعة ولا يحتج زملاؤه الأساتذة ولا تلاميذه الطلاب . ولو بالوقوف دقيقة عن الدروس ؟!... كذلك يوم حدث ما سمى بمذبحة القضاة بطرد نحو مائتين من رجال القضاء لفرية كاذبة مدبرة لم يحتج رجال القضاء . ويوم ضرب الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة وأهين وكاد يقتل لم يحتج زملاؤه . ويوم عين رئيساً لنا فى المجلس الأعلى للآداب ذلك الضابط الصغير لم نتفوه بكلمة لا أنا ولا طه حسين ولا العقاد . بل جلسنا

هادئين وكأن الوضع طبيعي . هنا تكمن مسئوليتنا جميعاً نحن المثقفين ويقع علينا اللوم بل المحاسبة أمام التاريخ . لا بد من محاكمة لنا جميعاً . ومن فتح ملف الثورة بأكمله . فينا من يقول إنها فظائع الاضطهاد والإرهاب والاضطهاد وقع فى شرك الأوهام . فالحقائق محجوبة . والرؤية الصحيحة للأشياء ممنوعة . ولم يبق أمامنا إلا اتجاه واحد وصورة واحدة وهى ما ترسمه لنا سلطات الثورة محفوفة بـدوى الطبول . سحرونا ببريق آمال كنا نتطلع إليها من زمن بعيد ، وأسكرونا بخمرة مكاسب وأمجاد فسكرنا حتى غاب عنا الوعى .

عودة الوعى

لقد ذكرت أن عبد الناصر أهدى إلىّ كتابه « فلسفة الثورة » عند صدوره . لقد كان بالإهداء عبارة أشار فيها إلى كتاب « عودة الروح » : « مطالباً بعودة لروح أخرى فى عهد الثورة » ... ولم يدر بخلدى وقتئذ أن ما سوف تحتاج إليه مصر بعد عشرين سنة من عمر الثورة ليس « عودة الروح » ولكن « عودة الوعى » ... وهو كتاب لن أكتبه أنا ، لا .. لأن شيخوختى وضعف صحتى هما وحدهما السبب ، بل لأن موقفى من الثورة منذ البداية كان الحب لها والأمل

فيها ، والتسامح معها كما ذكرت فى هذه الصفحات إلى أن صدمتنى هزيمة ١٩٦٧ وتكشفت لى خطورة مساوئها . وهنا ماذا كان يجب أن أفعل ؟ ويفعل الشيوخ زملائى أصحاب الأقلام ؟ هل نسكت ؟ وضميرنا يسأل لماذا سكتتم بعد أن عرفتم ؟ هل نصرخ ؟ يقولون لنا ليس هذا وقت صراخ واعتراض ومساءلة . ونحن نضمد جراحنا ونعد أنفسنا للمعركة المقبلة لإزالة آثار العدوان . إذن من يكتب الكتاب ؟.. من يستطيع ذلك ، فيما أرى ، هو كتاب آخر من جيل آخر ، له من الحرية وعدم الارتباطات العاطفية ما يمكنه من الرؤية الواضحة والحكم المتثبت على عهد اختلطت فيه حقائق الأشياء إلى حد كان يرفع فيه الشعار ويعمل بنقيضه خلف الستار . فكلمة الحرية مثلاً و « عهد الحرية » تجرى على الألسنة فى الخطب والأغانى والأناشيد ، وما من كلمة حرة واحدة لا يريدها الحاكم يمكن أن تخرج من الصدور ، وإلا دخل صاحبها السجون ، لقد نجح الحاكم فى أن يدمج مصر كلها فيه . وأن يقنع مصر االبالغة من العمر أكثر من خمسة آلاف عام أن عمرها هو عمر الثورة ونظامها ، وأن لا عمر لها قبل ذلك ولا بعد ذلك يستحق الذكر . هذه العملية البارعة لضغط مصر العملاقة ووضعتها فى علبة الثورة ونظامها ، خنق مصر ، وأفقدها الوعى بحقيقة حجمها الهائل عبر التاريخ والأنظمة التى اجتازتها كلها

وبقيت « مصر » .

كذلك فإن الكاتب المنتظر سوف يكون أقدر منا على معرفة الحقائق التى أخفيت عنا بإحكام شديد . وسوف يعجب عندما يعلم أن فداحة خسائرنا فى القتلى والأموال فى حرب اليمن لم تكشف لنا إلا فى أسطر قليلة عابرة فى إحدى الصحف ، وذلك فى عام ١٩٧٠ فقط أو بعد هذا التاريخ . كما أن السماح بمرور سفن إسرائيل فى خليج العقبة ظل مخفياً عنا طويلاً ، من سنة ١٩٥٦ حتى أعلنه الرئيس عبد الناصر فى مايو ١٩٦٧ . كما أن المسئول عن الحروب الخاسرة وعن كارثة الأمر بالانسحاب الذى اعتبره الخبراء العسكريون مجزرة مهينة مبيدة للجيش المصرى عام ١٩٦٧ غير معلن حتى الآن . وغير ذلك كثير مما لا نعلم عنه شيئاً إلى اليوم . وكل ما نعلمه هو ما نراه بأعيننا من آثار تفتت بلادنا وخرابها وشقاء أهلها. وعندما بدأنا نشعر بفداحة كوارث ثورتنا عقب هزيمة ١٩٦٧ وبدأ نوع من الوعى بضرورة المحاسبة... أقيم فى الحال أمامنا السد الواقى المنيع بشعار: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». ولا يصح الكلام قبل إزالة آثار العدوان. وإلا كان المتكلم أو المتحرك يعمل ضد الوطن. وهكذا شد الوثاق مرة أخرى، وختم على الأفواه. وتشتت الوعى من جديد. ولم يسمح لمصر أن تفتح ملف القضية وتحكم بنفسها على ما حدث لها...

إن معنى عودة الوعى لمصر هو استرداد حريتها فى الحكم بنفسها

على الأشياء . وانه ليحضرنى مثل جميل للحرص على وعى الشعب . أنه يوم تقدم ديجول وهو بطل قومى لفرنسا للاستفتاء على رياسة الجمهورية . لقد تقدم معه خمسة من المرشحين . وقبل الاستفتاء العام سمح للجميع بفرص متساوية فى الصحف والإذاعات لعرض برامجهم . ونشرت إحدى الجرائد خمس خانات معنوية بالأرقام لا بالأسماء ، ووضعت فى كل خانة برنامج المرشح . ودعت قراءها إلى اختيار البرنامج دون معرفة صاحبه ، ولم تذكر أسماء المرشحين إلا فى آخر صفحة . وأردت أنا أن أجرب فى نفسى هذه العملية ، واخترت إحدى الخانات ، وقد أعجبنى البرنامج الذى فيها ، وقلبت الصفحات لأعرف اسم من اخترت فإذا هو لدهشتى ديجول نفسه ... هكذا يُربى الرأى العام الحر ، ويحرصون على وعى الشعب فى تلك البلاد . أما الاستفتاء الذى تطبل له جميع الصحف مقدماً بكلمة « نعم » بالخط الأحمر العريض ، ثم يخرج بنتيجة ٩٩,٩ ٪ فمعناه أن هذا البلد ليس له وعى ولا حرية بل ولا كرامة إنسانية .

فهل ستسترد مصر الوعى الحر يوماً ؟.. لذلك كان لا بد لكتاب « عودة الوعى » من أن يكتب فى يوم من الأيام ...

... وهو لن يكتب قبل أن يفتح ملف الحقيقة ...

كل الحقيقة . من يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ حتى الوقت الحاضر ...

الأحد ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٢ ... ...

كلمة فى ذكرى عبد الناصر

(جريدة الأهرام ـــ ١٩٧٤/٩/٢٨)

« والرأى عندى فى علاج كل هذا أن الأمر فيه موكل بتغيير عام ، يحدث فى محيط المجتمع المصرى من جميع نواحيه السياسية والخلقية والدينية . فلا المدرسة ولا البيت بمستطيعين الآن شيئًا كبيرًا فى إصلاح ما فسد . لأن الفساد جاء من عاصفة جائحة لمبادئ شوهت وأسيء فهمها هبت فجأة على هذا البلد فقلبته كما رأينا شر منقلب . فالأمر أجل وأخطر من أن يعالج بالعلاجات الموضعية . إنما هى عاصفة أخرى جائحة من المبادئ الصحيحة السليمة ينبغى أن تهب فتقيم ما وقع وترم ما انهدم . ولكن المعضلة هى : كيف ومتى تأتى العاصفة المباركة ؟ فى رأيى أنها لا تأتى بغير إعداد واستعداد . كما جاءت العاصفة الأولى الهوجاء . فلقد دخلت تلك العاصفة خلسة من النافذة التى فتحها جهاد طويل مجيد وحركة وطنية مجيدة . وهنا يأتى دور البيت والمدرسة فى الإعداد والاستعداد ، عليهما يقع عبء تفهيم الشباب أن هذه الحال التى هم عليها لا يمكن أن تدوم وأن عليهم أن

يستعدوا لإصلاح ما بأنفسهم . على البيت والمدرسة الإكثار من تذكير الشباب بالمثل العليا القويمة والمبادئ الخلقية السليمة وأن يعرضا عليه عيوبه وعيوب الجيل وأمراض العصر ، وأن يقنعاه بأنه هو المنوط به يومًا إصلاح كل هذا الفساد وإحداث الثورة المباركة التى تقيم الوطن على أقدام الصحة والقوة والنظام ... »

(هذه صفحة من كتابى « شجرة الحكم » المنشور عام ١٩٤٥)

وبعد هذا الكلام بسبعة أعوام جاءت « الثورة المباركة » ثورة يوليه ١٩٥٢ . وكان من الطبيعى أن أستقبلها بالحماس وبالدهشة . فقد تحققت نبوءتى . كأنما كنت أخط سطور المستقبل للوطن وقامت بعض إنجازات مما كنا نطالب به من تحقيق العدالة الاجتماعية وتحديد الملكية والسير فى طريق الاشتراكية . وظهر عبد الناصر وتبلورت شخصيته على أنه محط الآمال . وتوثقت بينى وبينه أواصر المحبة القلبية ، على البعد ، فلم نتقابل طوال حياته أكثر من دقائق معدودة ونحن وقوف . ولم يحدث أن جلسنا معاً ، أو جمعنا مجلس طويل . ولكنه كان ، كما بلغنى ، يقدرنى ويكاد يعتبرنى أبًا روحيًا للثورة التى تنبأت بها ودعوت إليها . وهذا الجانب الشخصى سأظل دائمًا أحتفظ به فى قلبى وأحمل له فى أعماق نفسى أجمل الذكرى .

إن الجانب الشخصى هو حقى . ولكن الجانب العام هو حق

الوطن . وعندما كتبت فى الأربعينات عن ضرورة قيام « ثـورة مباركة » كان الدافع هو إصلاح حال الوطن . ولقد أعطينا الثورة من تأييدنا ولعبد الناصر من حبنا وحماسنا ما كان كفيلاً بأن يرفع بلادنا إلى أعلى مستوى فى الحضارة والرخاء وكانت آمالى هى أن أرى الأمية فى بلادنا قد اختفت ، وجحور الطين التى يسكنها الفلاح المصرى ولا مرحاض فيها ويتبول ويتبرز كالحيوان فى الخلاء قد زالت ، وأصبح يعيش ويسكن كالآدميين . وأن العامل المصرى قد خصصت له المستشفيات النظيفة وأنشئت لأوقات فراغه هو وعياله النـوادى الرياضية المفيدة ، وارتفع فى المستوى الاجتماعى إلى درجة أمثاله فى البلاد المتقدمة . والشعب كله ينعم بما تنبأنا له على يد « الثـورة المباركة » من الوقوف على أقدام الصحة والقوة والنظام ... إلى أى حد وبأى نسبة ظفر الشعب بهذه المكاسب ! فى رأيى أن ما تحقق له من مكاسب الثورة لا يزيد على عشرة فى المائة مما توقعنا له . وقد أتفاءل وأزيدها إلى عشرين أو ثلاثين فى المائة ، دفعنا فيها من حرياتنا ووعينا وأرواحنا وأموالنا أبهظ الأثمان ... على كل حال كانت آمالنا فى الثورة أكبر مما تحقق حتى الآن ...

لقد حكم عبد الناصر البلاد بمفرده حكمًا مطلقًا نحو خمسة عشر عامًا كان يستطيع خلالها أن يرسى البلاد على دعائم اشتراكية صحيحة

وديمقراطية سليمة ، نجنى ثمارها الحقيقية لا شعاراتها المظهرية . فما الذى حدث ؟! لا شك أنه كان يريد الخير لشعبه . ولكن الذى حال دون تحقيق هذا الخير طائفة من الموانع والعلل والأسباب والمعوقات . ما هى بالضبط ؟ لا بد أن نعرف كل ذلك حتى نجد العلاج ونستأنف المسير على هدى ونور . من أجل هذا طالبنا وسنظل نطالب بفتح الملف ..

لست أدرى لماذا الغضب والارتياع والتشنج والفزع عند بعض الناس لمجرد ذكر الملف وفحص الملف ! أهو خوف شخصى من خبئ لا يراد كشفه ! أهو نوع من عبادة الفرد اعتدنا عليه ونعتبر من الكفر المساس به ؟ أهو تدهور فى التربية الوطنية « لا يفرق بين المناقشة والتهجم ! من طول ما ألف الناس أن الخلاف فى الرأى يؤدى إلى المعتقلات !؟

« اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية » حكمه قديمة . حبذا لو فهمها الناس وعملوا بها . ففى مجال السياسة هى قمة النضج . وفى محيط العلاقات الشخصية هى مجلبة لراحة النفس وحرية النظر . ولست أدرى ما المانع أن أحب شخص عبد الناصر حب الصديق وأفحص أعماله العامة فحص المواطن ؟ لماذا نخلط دائماً بين الود والرأى ، وبين المشاعر الشخصية والمواقف العامة ونعتبر كل نقد

خصومة خاصة . ويوم كتبت رداً على رأى قيل إنه للأستاذ هيكل دهش من كان يعلم بما كان بيننا من مودة وحسبوها خصومة شخصية ، ولم يعرفوا أننا دائما نختلف فى الرأى إذا جمعنا مجلس وأعنف عليه أضعاف العنف الذى قرأوه ، ثم لا نلبث أن نأخذ أحدنا بذراع الآخر ونمضى نتناول الطعام معاً ، بنفس صافية ومودة راسخة ..

هناك بالفعل حجة جديرة بالنظر هى الزعم بأن نقد ثورة ١٩٥٢ أو المساس بالناصرية ردة تهدد مكاسب الشعب وتعود بنا إلى الوراء . إذا كان ذلك صحيحاً فهى بالفعل كارثة . وإذا كان معنى ذلك ومؤداه أن نقعد نسبح بحمد الثورة والناصرية ونتغنى بمكاسب نقنع بها ونقنع أنفسنا بكمالها ونعمى عن نقصها ولا نطالب بالمزيد منها وبإصلاح ما فسد فيها فهى كارثة أخرى ...

على الشعب إذاً وعلى الشباب بالأخص أن يختار : بين الاقتناع والعبادة أو الطموح والحرية ، بين عبادة الفرد التى تعميه عن التفكير والنظر أو الطموح الحر إلى مستقبل متسع الآفاق ...

أقول الشباب لأنى وجهت إليه كلامى وعلقت عليه آمالى منذ ثلاثين عاماً فى تفجير « الثورة المباركة » . ولم يخب ظنى فى شباب ذلك العهد ، فقد قامت بالفعل تلك الثورة والقائمون بها شباب .

وأنا اليوم شيخ مرشح للموت فى أى لحظة ، ولا مطمع لى ولا أمل فى شىء . وكان الأجدر بى أن أجلس مستريحاً أنتظر النهاية فى هدوء . فما الذى يدفعنى إلى كل هذا الذى أفعله الآن . إنه ولا شك وضع خاص بى أجد نفسى فيه : هو أنى المتنبئ والداعى إلى « الثورة المباركة » .. وكان على أنا أن أجيب عن هذا السؤال : هل حققت هذه « الثورة المباركة » كل الآمال والأحلام التى كان ينتظر منها أن تحققه للوطن ؟.. لذلك كتبت « عودة الوعى » يوم مرور عشرين عاماً على قيام هذه الثورة ..

كل هذا حق الوطن علىّ . أما حق الحب الشخصى والمودة الخاصة فإنه يقتضى منى أن أذكر بالخير رجلاً حافظ على مودتى طول حياته ، ولم أملك نفسى يوم وفاته من ذرف دمعة صادقة . وكلما حل يوم الذكرى لرحيله دعوت له من أعماق القلب بالرحمة والغفران .

نموذج من رد الفعل

الشجاعة الحقيقية

(محمد حسنين هيكل ـــ مجلة الصياد ـــ بيروت)

كل من كتب ، وكل من تكلم ، كان موجوداً أيام عبد الناصر ، ويشهد عليهم جميعاً ، وأبسط شيء يمكن أن يقال لهم هو أنهم كانوا أشباحاً خائفة ، أشباحاً ضعيفة . من يملك الشجاعة لا ينتظر الموت ليمارس شجاعته . الشجاعة الحقيقية هى أن يقف الإنسان أمام الحياة ويتحدى لكن كل من لا يستطيع أن يهمس رأيه إلا بعد الموت ، وحتى يتأكد أن أحداً لن يرد عليه ، فليس فى موقفه هذا نوع من الشجاعة ، فضلاً عن أن الذين كتبوا مذكرات ، مع الأسف الشديد ، وبالرجوع إلى مواقفهم جميعاً ، لم يكن هنا أسبق منهم إلى حرق البخور أمام عبد الناصر ، والغريب أن المدافعين عن الناصرية هذه الأيام ، هم الناس الذين كان عندهم ، فى وجود عبد الناصر ، آراء فى بعض جوانب التجربة . والذين يتكلمون عن التجربة

ويجعلون من أنفسهم أبطالا ، هم الذين لا يملكون إلا أن يقفوا أمام الحياة فى خزى وأمام الموت فى خزى الموقف نفسه .

وأنا لا أعتقد أن أى شيء يمكن أن يؤثر على عبد الناصر ، يبقى عبد الناصر النتاج الطبيعى ، والتعبير الحقيقى عن حركة القومية العربية فى القرن العشرين ، وتبقى الناصرية منهاجاً لتطور الأمة العربية ، منهاجاً قابلاً للتطور ، أى ليس جامداً . ولا أستطيع أن أرى مستقبلاً للعالم العربى ، ولكل العالم النامى دون الناصرية ، مجموعة الأفكار ، والإنجازات والاجتهادات الناصرية التى هى أساس لأى شيء يقوم به . ربما نشر مرة عن « مصر والهزيمة » . أى أن عبد الناصر هزم سنة ٦٧ ، وهذه ليست قضية ، ولكن يبقى عبد الناصر تعبيراً عن مصر وعن العرب فى مرحلة معينة بمقدار ما هو نابليون تعبير معين عن فرنسا . طبعاً هناك اختلاف . نابليون فى جزء من الحركة كان انسلاخاً من الثورة ، ولو أنها حاولت أن تدعو إلى هذا الجزء على أساس أنه ثورة . لكن عبد الناصر من أول يوم حتى آخر يوم كان اتجاهه صوب التغيير والمستقبل والتاريخ .

هزم ؟ نوافق . ولكن الغريب أن بعض الناس يعتبرون أن السويس مثلاً كانت هزيمته ، إلى هذه الدرجة يصل تشويه التاريخ .

السويس كانت حركة أساسية فى العالم الثالث كله : أفريقيا ،

آسيا ، والشرق الأوسط اختلفت كلها بعد السويس . إذا كان العرب يتكلمون عن ثرواتهم هذه الأيام ، فجمال عبد الناصر أول من وقف فى وجه الاحتكارات ، وأمم قناة السويس أول من عمل قيمة لكل العرب .

أثناء وجود عبد الناصر ، كانت قوته وقوة اندفاعه ومهابته تمنع حواراً حقيقياً مع أفكاره . هذا النهار أنا متحمس لهذه الردة ضد عبد الناصر لأنها ستنشئ احتكاكاً حقيقياً مع أفكاره .

عبد الناصر كان فرضية مطروحة . فرضية أعطت نفسها بقوة واكتسحت أشياء كثيرة جداً .

أعتقد أننا سنصل فى النهاية إلى إثبات أن كل ما نادى به عبد الناصر من مبادئ ومن أفكار هو صحيح .

هناك أخطاء فى الممارسات ، ولكن أين فى الدنيا كلها لم تحصل أخطاء فى الممارسات ؟

ثم إن الناس يتوقفون عند الأخطاء فى الممارسات وينسون الإنجازات . هذا ليس معقولاً .

* * *

رد توفيق الحكيم

(جريدة أخبار اليوم ـــ القاهرة)

استلفت نظرى أن الاستاذ هيكل ، المدافع عن عبد الناصر ، قد رد على نفسه بنفسه حين وصف من نقدوا اليوم حكم عبد الناصر بأنهم كانوا أشباحاً خائفة ضعيفة . وهذا صحيح . لكن هل توجد الأشباح الخائفة الضعيفة إلا فى جو من الفزع والرعب ؟

لماذا إذن لا توجد أشباح خائفة ضعيفة فى بلاد مثل فرنسا وإنجلترا وأمريكا والسويد وغيرها من البلدان التى لا يعيش أهلها فى الرعب والهلع من التعذيب والمعتقلات والقتل والنفخ فى البطون والاعتداء على أعراض الزوجات والبنات والأخوات مع تشويه الآراء المعارضة بتلطيخها بتهم التآمر والخيانات ؟

أما عن شجاعة ناقد اليوم الذى ينقد لأنه متأكد أن أحداً لن يرد عليه . فهذه بالفعل ليست شجاعة . ولكن الواقع غير ذلك . فإن الرد والرد القاسى المملوء بالتجريح الشخصى إنما يقع اليوم فى أكثر البلاد العربية على كل من يتجرأ على المساس بقداسة عبد الناصر .

إن الكثير من صحف العالم العربى استقبلت كتابى « عودة الوعى » بالتجريح الشنيع لشخصى . فليطمئن إذن الأستاذ هيكل إلى أن من يتعرض لقداسة عبد الناصر فى مصر وغير مصر سوف يجد من يهب للدفاع عنه بالحق وبالباطل .

ذلك أن الراكبين على جواد عبد الناصر فى كل مكان هم دائماً أكثر الرابحين .

فليطرح إذن مسألة الشجاعة جانباً فالمسألة ليست مسألة شجاعة . وخاصة عند بعض الناس . ولكنها مسألة قضية . وهى عندى على الأخص مسألة محبة ومودة . فأنا أحب شخص عبد الناصر وأوده لأسباب كثيرة يعرفها الكثيرون . ربما كان أهمها أنه كان يحبنى ويحترم آرائى إلى آخر لحظة فى حياته . وأنه منذ أول عهده جمع بين آرائى وآرائه وآمالى وآماله . وكان يعنى ذلك دائماً . كان من الطبيعى أن أكون أنا المدافع عنه دائماً .

وقد كنت كذلك .

إلى أن كثر الهمس من حولى باتهامات فظيعة ، أخذت تتكاثر كل يوم وتصل أحياناً إلى حد الجرائم التى تعاقب القوانين والشرائع على مرتكبيها بأقصى العقوبات . ما هو إذن الموقف الذى أتخذه ويتخذه كل صديق يرى الاتهامات الفظيعة تكال ضد صديقه ؟ هل يكتفى

بالتكذيب والتستر والتمويه والتجريح لكل من يمس الصديق ؟ أو أن يطالب بالتحقيق النزيه المنصف حتى يخرج برىء الساحة ؟

لقد اخترت الأمر الثانى — لأنى بطبعى ووظيفتى الأولى رجل قضاء .. لذلك كتبت لنفسى صفحات « عودة الوعى » أسطر فيها رأيى الشخصى فى الموضوع غير قاصد نشرها فى الوقت الحاضر ، ولكنها خرجت من يدى بعد ذلك ونشرت .

وهى ليست عريضة اتهام ولا هى حكم من الأحكام.لأن ذلك يقتضى وجود الوثائق وكشف الحقائق . ولكنها مجرد مطالبة بالتحقيق الدقيق فى اتهامات منسوبة إلى شخص أحبه وأوده ولما كان هذا الشخص رمزاً لأمة فإن محاسبته العامة تصبح حقاً من حقوق الأمة .

ولن يكون لأمة من الأمم وعى إذا هى سمحت لستار كثيف يخفى عنها طويلاً الحقائق التى تتصل بمن شكل ولا يزال حتى بعد موته يشكل مصيرها . إن تصوير عبد الناصر اليوم بأنه الجثة الهامدة المنسية الضعيفة التى تتكالب عليها مخالب المتظاهرين بالشجاعة هو تصوير كاذب . فهو على العكس قوة قائمة تنصب له التماثيل الضخمة فى بعض البلاد العربية وتمنح باسمه الجوائز فى بلاد أخرى . وصورة شامخة على الجدران فى مصر وفى كل مكان .

فتصويره إذن بأنه مات واندثر هو تصوير مغرض يراد به إبعاد الأظافر عن نبش الحقيقة التى تكشف عما يريد إخفاءه أصحاب الأغراض . كما أن قيام المدافعين عنه بالتجريح الشخصى لكل من يريد التحقيق لمما يثير الشكوك . فما من مرة دخل فيها مدافع فى لب القضية ، وإنما كان اللف والدوران من حولها بالأساليب المعروفة فى ساحات المحاكم بأن تنهال الأسئلة الغامزة . وأين كنت فيما مضى ؟.. ولماذا لم تقل ذلك من قبل ؟ وما الذى أسكتك حتى الآن ؟ إلخ .. إلخ .

حيل مألوفة من قديم للتشويش على الاتهام لصرف النظر عن جوهر التهمة وإفلات المتهم . ولكن على الرغم من ذلك تبقى دائماً التهم فى صميمها باقية والجرائم فى حقيقتها قائمة والتساؤل الدائم هو :

هل وقعت أو لم تقع ؟

هل ارتكبت أو لم ترتكب ؟

هنا جوهر المسألة . وهنا كل القضية ومن يملك الإجابة الجادة فليتقدم بالوثائق . أما غير ذلك فمهاترات .. وشعارات : وما أصبو إليه هى الحقائق ليطمئن قلبى على من كان عزيزاً على نفسى . فإذا ثبتت براءته فإنى أكون أسعد السعداء . وإذا أدين فإنى أتحمل المسئولية معه . وأكون بذلك فخوراً لأنى أكون قد نفذت الحكم

الذى يعيد إلى الأمة وعيها .

إن من يحب عبد الناصر حقاً هو الذى يطالب بفتح ملفه ليطمئن قلبه بأن له صفحات بيضاء . أما أكثر الذين يركبون جواد عبد الناصر فلا يريدون أى اقتراب من الجواد ويطعنون برماحهم شخص من يمسه ، لأن كل ما يهمهم هو ركوب الجواد .

إن كثيرين من أصدقاء نيكسون ورجال حزبه كانوا يريدون له المحاكمة ولا يتسترون على أى اتهامات تثير الريب والشكوك حول اسمه . لأنهم يعلمون أن قطع الشك باليقين هو فى مصلحته ومصلحة الوعى الوطنى .. ومهما يكن قدره وقدر خدماته فهو مخلوق ومواطن لا ينبغى أن تكون له قداسة لا تمس وحصانة أبدية تستعصى على كشف الحقيقة .

هذا هو المعنى الذى يجب أن يستقر فى ذهن كل من يحب عبد الناصر حباً حقيقياً وليس حباً نفعياً وكل من يعزه ويقدره حق قدره .

سؤال صحفى

(مجلة المصور ــ القاهرة)

* بعض الأقلام التى انبرت تهاجمكم .. لم تتعرض لصلب ما جاء فى الكتاب .. ولقد واجهتم أنتم التساؤل المطروح .. لماذا لم تتكلم وقتها بإجابة لها وجاهتها .. قلتم إنّ الظروف لم تكن تسمح لأى واحد أن يجد منبراً لنشر وجهة نظره .. وكذلك لم تكن جسامة بعض ما حدث قد أتيح لنا معرفة أبعادها .

هذا معقول .. ولكن .. ألم تكن تبدو ثمة ظواهر كان يجب أن نقف فى مواجهتها ؟

رد توفيق الحكيم

ــ إن التجاء الأقلام التى تكتفى بمهاجمتى دون التعرض لصلب الوقائع هو اعتقاد خاطىء بأن التجريح الشخصى يمكن أن يستر ويخفى حقيقة الوقائع . ولكن لا بد أن تنكشف يوماً الحقائق . لأن شخصى

زائل أما ما يمس الأمة فهو باق . أما لماذا السكوت حتى اليوم فكل من يوجه هذا السؤال يعلم علم اليقين السبب فى ذلك . وإذا فرضنا أن السكوت عن الجريمة كان ذنباً فما قولهم فيمن ارتكب الجريمة ؟ أنترك من ارتكب الجرائم ونحاسب من سكت عنها ؟ حاكموا الاثنين على الأقل . أما محاسبة الناقد الذى سكت والتستر على المجرم الذى أجرم ، فهذا له معنى آخر ووصف آخر وسبب آخر . ومن الحق سؤالك ألم تكن تبدو ظواهر كان يجب أن تقف فى مواجهتها ؟ فعلا قد كانت هناك ظواهر دفعتنى إلى مواجهتها بالوسائل التى كانت فى يدى . من ذلك ظاهرة خنق الحرية وإعطاء القانون إجازة . وهنا رأيت من واجبى أن أكتب « السلطان الحائر » لأوضح وجوب احترام القانون والحرية والابتعاد عن استعمال السيف والعنف . وجاءت هذه العبارة تحذيراً للحاكم : « إن السيف يفرضك ولكنه يعرضك أما القانون فهو يحرجك ولكنه يحميك » . إن الذى يحمى الحاكم حقاً هو القانون والحرية ، وأما الخطر الذى يمكن أن يتعرض له فهو فى السيف الذى يظن أنه يحميه . وكتبت « السلطان الحائر » عام ١٩٦٠ عندما بدأت هذه الظاهرة فى التكشف . ثم بدت ظاهرة أخرى فى عام ١٩٦٦ . وهى ظاهرة القلق فى المجتمع المصرى التى تفشت إلى حد أصبح المجتمع فيه كأنه يعيش بغير عمود فقرى . مجتمع رخو هلامى متعفن لا

يصلح لمواجهة أى قوة خارجية . وخشيت فى ذلك الوقت من عواقب أى مغامرة عسكرية غير محسوبة اعتماداً على جبهة داخلية قلقة رخوة مريضة . فكتبت « بنك القلق » محذراً . ولكن على الرغم من كل ذلك فلم يؤخذ بهذه الكتابات وهذه التحذيرات والمواجهات إلى أن وقع المحظور .

رسالة من توفيق الحكيم

إلى اليسار المصرى

(مجلة روز اليوسف ـــ القاهرة)

بعد الصدمة الأولى لـ « عودة الوعى » ، وبعد كل ما أثار هذا الكتاب من شكليات وسطحيات فى المواقف والمشاعر ، خاصة فى بعض البلاد العربية التى تسود فيها ناصرية تجارية .. أعتقد أنه آن الأوان للدخول فى صميم القضية التى أثرتها ، ومناقشة جوهر الموضوع بعيداً عن الأشخاص والشخصيات .

وأنا أقصد فى حديثى هنا مخاطبة اليسار . لأننى ـــ أيا كانت مثالياتى ـــ أعتبر نفسى من المسئولين عن الاشتراكية المصرية .

وأنا أدرك جيداً موقف اليسار الحالى ، والناصرية بوجه خاص ، وخوفه من استثمار الرجعية لنقد إنجازات عبد الناصر . ولكن خوف اليسار هذا يكاد يوقعه فى موقف رجعى ! فهو ينسى أزمة الديمقراطية التى وقعت فى سنوات ١٩٥٣ ـــ ١٩٥٤ . وينسى موقفه من رفض النظام الشمولى الذى ساد فى هذه السنوات . صحيح أن موقف

الثورة واتجاهها اختلفا منذ قرارات التأميم . ولكن على اليسار أن يتخفف قليلاً من تزيين وتجميل تجربتنا فى الاشتراكية ، وتصويرها فى صورة الاشتراكية المثلى !

ولعل عذر اليسار فى هذا الموقف خوفه من الردة إلى الوراء وإلى الأسوأ . فهو إذن موقف تكتيكى دعت إليه ضرورات الظروف الحاضرة . وليس بالموقف الاستراتيجى السليم الصالح للبقاء والاستمرار . ذلك أن القول بأن الناصرية هى الاشتراكية الحقيقية تزييف على الواقع والتاريخ . ولا مفر . ككل تزييف ، من أن يسقط وينكشف . وسيؤدى هذا حتماً إلى ظهور يسار صادق مع نفسه ومع الحقيقة ، يبنى مذهبه وكفاحه على المذهب الاشتراكى الحقيقى دون استعارة أردية مرقعة . وهذا هو ما يجب التنبه إليه من الآن ، حرصاً على مستقبل اليسار فى مصر، قبل أن يظهر زيف الموقف التكتيكى الحالى المؤقت أمام أعين الاشتراكيين المخلصين .

إننى بما كتبت لم أكن أتجنى على عبد الناصر كما يقولون . إننى على العكس أحبه ، وأقدره لكننى أضع اجتهاداته فى موقعها . وأعتبر أن مشكلات الديمقراطية والاشتراكية فى بلادنا ما تزال — بعد عبد الناصر — فى حاجة إلى حلول أخرى ثورية وديمقراطية .

إننى لا أنقد لحساب الماضى . وإنما أنقد لحساب المستقبل .

— حاولت نقد ما رفضت من سلبيات أيام عبد الناصر ، بل أيام

السادات أيضاً .

إن ميولى التقدمية كانت دائماً واضحة ، ومنذ ما قبل الثورة . ويكفى كتاب « سلطان الظلام » الذى كان يحارب النازية منذ أربعين عاماً .

أما تعاطفى مع الماركسية التى كنت أدرسها فى العشرينات ، عندما كان عمر الثورة الروسية أقل من سبع سنـوات ، فشىء معروف . وكنا أيامها نرقب إنشاء حزب أو اتجاه اشتراكى واضح فى مصر .

ولكل ذلك أعتبر من حقى أن أتكلم اليوم عن الاشتراكية فى مصر . ومن حقى أن أعمل على وضعها على أساس سليم . وأن أخاف على اليسار المصرى وأحافظ عليه وعلى مستقبله .

وأنا ألوم هذا اليسار لأنه يتناقض الآن مع نفسه إلى حد ما ولأنه فى حالة ردة عن الجوهر الحقيقى للاشتراكية ، لاهتمامه بالتكتيك المؤقت على حساب البرنامج الاشتراكى الحقيقى ، وعلى حساب الاستقلال بمنبر يميزه داخل صيغة التحالف التى خدمت الانتهازية أكثر مما خدمت العمال والمثقفين والفلاحين .

إن خوف اليسار من عودة الرجعية القديمة يجعله يتمع — كما قلت — فى خدمة الرجعية الجديدة .

وفى اعتقادى أن اليسار يجب أن ينقد السلبيات الكثيرة التى عانينا

منها . لأن هذا واجبه .

ثم إن تناقض اليسار مع نفسه يتضاعف عندما نرى القيادة الحاضرة تعلن أنها شريك مسئول للقيادة الماضية . عن أى شىء يدافع إذن ؟ وضد أى شىء ؟ وماذا ينكر وماذا يتبنى ؟

إن قصة « عودة الوعى » ببساطة هى أننى فى عام ١٩٧٢ ، وفى مناسبة الاحتفال بمرور عشرين عاماً على ثورة يوليو ، وجدت نفسى فى أزمة قاسية . فى لحظة استرجاع لعمرى الفكرى ، الذى هو عمر مصر الحديثة أيضاً . مصر التى كانت كل كتاباتى ودراساتى ورحلة عمرى تدور حولها .

ماذا فعلت بنا الثورة ؟ وماذا فعلت لنا ؟!

وجواباً على هذا السؤال كتبت انطباعاتى فى « عودة الوعى » .

وما يهمنى الآن هو أن أؤكد وأن يفهم اليسار المصرى ، أن جوهر « عودة الوعى » أنه فحص لعهد أو على الأصح مطالبة بفحص عهد بعد أن صار جزءاً من التاريخ . وأن هذا التاريخ ما تزال مجهولة تفاصيله وحقائقه وخباياه ومستنداته . ومن الخطأ ، فى حالة كهذه ، التعجل فى إصدار الأحكام المطلقة ذات اليمين أو ذات اليسار ! ولذلك لا بد من فتح كل ملف ثورة ١٩٥٢ .

١٥ أكتوبر ١٩٧٤

بعد رسالة توفيق الحكيم لليسار المصرى
رسالة ترد عليه

لم يهاجمك ماركسى واحد !

عبد الستار الطويلة

(مجلة روز اليوسف ـــ القارة)

بعد أن ألقى خروشوف خطابه التاريخى الذى كشف فيه ـــ أمام مؤتمر الحزب الشيوعى عام ١٩٥٦ ـــ عن انتهاك الحريات أيام ستالين .. بدأ أعضاء المؤتمر يقدمون إليه أسئلتهم مكتوبة ، وموقعاً عليها بأسمائهم . وكان من بينها سؤال يقول : إذا كان هذا الانتهاك للديمقراطية قد حدث أيام ستالين .. فأين كنت أنت ؟

وقرأ خروشوف السؤال ، ولاحظ أنه بلا توقيع ، فصاح :

ـــ من صاحب هذا السؤال ؟

ولكن ، لم يرد أحد .

وعندئذٍ ضحك خروشوف وقال :

ــ جوابى أننى كنت مثلك يا صاحب السؤال !

ثم أضاف :

ــ ولا تنسوا أن الإرهاب فى عهد ستالين أدى إلى إعدام ثلثى أعضاء اللجنة المركزية بتهمة الخيانة فى سنة واحدة !

إن هذه القصة تطوف بذهنى كلما قرأت هجوماً على كاتبنا الكبير توفيق الحكيم ، صاحب « عودة الوعى » . فقد ارتكز هذا الهجوم فى معظمه على مسألتين شكليتين :

الأولى ــ كيف عاد الوعى إلى صاحبه بعد عشرين عاماً ، وبعد أن مات الزعيم الخالد عبد الناصر ، ولماذا سكت طول هذه المدة عن الأخطاء التى تناولها كتابه .

والثانية ــ إن بعض ما كتبه متناقض مع ما كتب فى حياة عبد الناصر .

ومع أنى لا أعرف الأستاذ الحكيم إلا من خلال كتبه ، ولا أوافق على أكثر ما كتب فى « عودة الوعى » .. إلا أننى أرى الهجوم الذى يتعرض له الآن ظالماً وخاطئاً .

ذلك أنه إذا افترضنا أن الحكم قد خاف عشرين عاماً ، فإن من حقه أن يخاف . وهو لا يدعى أنه زعيم حزب ، أو عضو حزب ، أو

حامل بندقية . وقد حدث فى كل بلاد العالم ، لا فى مصر وحدها ، أن خاف ألوف من الناس فى ظروف ما .. ثم لما أتيحت لهم الفرصة تكلموا . وصواب آراء الحكيم أو خطؤها لا يقرره هل كان خائفاً أم لا .

ومن المؤكد أن الكثيرين ممن يهاجمونه اليوم قد عرفوا الخوف أيضاً كما عرفه هو .. فمن المعلوم والمعروف . أن معظم المثقفين المصريين قد ضربوا بالسياط على ظهورهم طوال العشرين عاماً الماضية ، بشكل مباشر أو غير مباشر . ومن المؤكد أن الضرب بالسياط يخيف .

ولا ننسى هنا قافلة الألفى مواطن مصرى ، التى كبلت بالأصفاد فى طريقها إلى منافى الصحراء وأبى زعبل ذات ليل فى عام ١٩٥٩ ، لأنهم كانوا الوحيدين الذين قالوا لا !

أما التناقض بين ما كتب توفيق الحكيم اليوم وما كان يكتبه بالأمس فهذا أيضاً ليس حجة قوية . لأنه ما دام لم يقم دليل قاطع على النفاق فإنه من المحتمل أن يكون المرء من واقع خبرته قد غير رأيه . واليسار المصرى — وخاصة الماركسيين — قد أخطأ بعضهم مرتين فى تقييم ثورة ٢٣ يوليو ، ثم غيروا آراءهم .

يجب إذن أن تناقش آراه توفيق الحكيم ذاتها بموضوعية ، ورفق وود .

ففوق المكانة الأدبية الهائلة — العربية والعالمية — التى يتمتع بها توفيق الحكيم ، يجب أن يسرنا دخوله مجال السياسة بشكل مباشر وهو فى هذه المرحلة المتقدمة من السن .. فضلاً عن ركوبه المركب الصعب بإعلانه — لأول مرة — عن تعاطفه مع الماركسية (روز اليوسف — ٢١ أكتوبر) .. وهذه شجاعة فائقة منه فى وقت ارتفعت فيه أصوات عديدة تتبرع بهجوم صليبى (فج وهايف حقاً) ضد الماركسية بدون مناسبة .

إننا بصدد كاتب حارب الفاشية منذ أربعين عاماً . وسجل التزامه بحب مصر فى كتاباته . فأحرى بالوطنيين وخاصة اليساريين منهم — باستخدام المنهج الأخوى فى النقد معه .

لقد أصاب الحكيم كبد الحقيقة — فى رسالته الموجهة إلى اليسار المصرى — عندما قال إن خوف اليسار من استثمار الرجعية لنقد انجازات عبد الناصر قد يؤدى إلى الوقوع فى موقف رجعى ..

ذلك أنه لا يمكن ليسارى أن يدافع عن معتقلات وتعذيب وسجون وانتهاك للديمقراطية . إن مسئوليته أن ينقد هذا كله ولكن مشكلته هى تحديد المدى الذى يندفع فيه إلى النقد ، والإطار الملائم له .

إن اليمين يهاجم منجزات عبد الناصر ، وعلى عهد السادات ولكننا

نعلم جيداً أن العدو المبين للديمقراطية هو اليمين . وإنه يريدها ديمقراطية للوجهاء الجدد والترامى للانقضاض على منجزات عبد الناصر ، وعلى عهد السادات أيضاً ، وعلى ثورة ٢٣ يوليو كلها .

إن اليمين المصرى يرى فى عهد السادات مرحلة انتقالية ريثما يتمكن من استغلال الحريات الديمقراطية الحالية للقضاء على الثورة كلها .

لكن هل يعنى ذلك أن يرفض اليسار الديمقراطية ؟

إن هذا اليسار نفسه — وخاصة الماركسيين — هو الذى كان ينتقد سلبيات تجربة عبد الناصر بلا مواربة بل وهو أكثر الفئات الوطنية تحملاً لنتائج هذا النقد : سنوات فى السجون وتنكيل وتشريد و .. إلخ .

ولقد كان هذا اليسار يواجه التنكيل والاضطهاد وهو يؤكد على وطنية النظام ، ويمد يده له بالتعاون ، رغم أن هذه اليد ما كانت تتلقى إلا السياط والعصى الغليظة . ولكنه كان يظل باسطاً إياها ولسانه ينقد السلبيات .. وهذا الموقف الصحيح لليسار الماركسى حتى اليوم ، حتى من سلبيات المرحلة الحالية ..

وليس صحيحاً ما يقوله الحكيم إذن من أن اليسار يزين ويجمل التجربة الاشتراكية المصرية .

بل ليس صحيحاً أن الماركسيين — وهم إحدى فرق اليسار —

يصفون تجربة عبد الناصر بأنها الاشتراكية المثلى ، إن هذا قول لم يقل به ماركسى واحد ..

إن ما قاله اليسار الماركسى دائماً أن الاتحاد الاشتراكى بوضعه الحالى خدم الانتهازية أكثر مما خدم العمال والفلاحين . وأن مشكلات الديمقراطية والاشتراكية فى بلادنا ما تزال بعد عبد الناصر (كما كانت أثناء عهده) فى حاجة إلى حلول أخرى ثورية وديمقراطية .

ولعل الحكيم يعذر بعض اليساريين الذين اشتركوا فى الحملة عليه ، لأن اشتراكهم كان رد فعل ضد حملة اليمين المسعورة ، ذات الصوت الأعلى والمنابر العديدة .

صحيح أن رد الفعل هذا قد اتخذ شكلاً عصبياً وتشنجياً أحياناً يضر بالتجربة الناصرية ذاتها قبل أن يفيدها .

ولكن .. يجب أن أسجل أنى لم أقرأ هجوماً واحداً من كاتب يسارى ماركسى على توفيق الحكيم حتى الآن .

إن لتوفيق الحكيم أن يكتب ما يشاء .. وعلى كل القوى الوطنية أن تتقبل ما يكتب برحابة صدر .. وتناقشه فى هدوء ..

فما أكثر ما عانت القوى الوطنية من أساليب الصراع التى

تستخدمها ضد بعضها البعض ، بينما اليمين والاستعمار يتفرجان ، ويصفقان ، ويستعدان للانقضاض على الجميع ، ليجهزا عليهم بعد أن يكونوا قد أنهكوا .. وأثخنوا بعضهم بعضاً بالجراح .

* * *

مؤلفات الأستاذ على أحمد باكثير

(١) أخناتون ونفرتيتى
(٢) سلامة القس
(٣) وا إسلاماه
(٤) قصر الهودج
(٥) الفرعون الموعود
(٦) شيلوك الجديد
(٧) عودة الفردوس
(٨) روميو وجولييت
(٩) سر الحاكم بأمر الله
(١٠) ليلة النهر
(١١) السلسله والغفران
(١٢) الثائر الأحمر
(١٣) الدكتور حازم
(١٤) أبو دلامة
(١٥) مسمار جحا
(١٦) مسرح السياسة
(١٧) ماسأة أوديب
(١٨) سر شهر زاد
(١٩) سيرة شجاع
(٢٠) شعب الله المختار
(٢١) إمبراطورية فى المزاد
(٢٢) الدنيا فوضى
(٢٣) أوزوريس
(٢٤) دار ابن لقمان
(٢٥) قطط وفيران
(٢٦) إله إسرائيل
(٢٧) هاروت وماروت
(٢٨) الزعيم الأوحد
(٢٩) جلفدان هانم
(٣٠) التوراة الضائعة

الملحمة الإسلامية الكبرى « عمر » :

(١) على أسوار دمشق
(٢) معركة الجسر
(٣) كسرى وقيصر
(٤) أبطال اليرموك
(٥) تراب من أرض فارس
(٦) رستم
(٧) أبطال القادسية
(٨) مقاليد بيت المقدس
(٩) صلاة فى الإيوان
(١٠) مكيدة من هرقل
(١١) عمر وخالد
(١٢) سر المقوقس
(١٣) عام الرمادة
(١٤) حديث الهرمزان
(١٥) شطا وأرمانوسة
(١٦) الولاة والرعية
(١٧) فتح الفتوح
(١٨) القوى الأمين
(١٩) غروب الشمس

رقم الإيداع ٥٨٧٦ / ٨٨
الترقيم الدولى ٠ ــ ٠٤٦٤ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

6

الثمن ١٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه